للناشئين والشباب

11

روائع الأدب العالمي

في كبسولة

عرض وتبسيط : **حسين عيد**

1- اللعبة الأكثر خطورة
2- الضيف
3- شجرة سفرجل يابانية
4- ما وراء حائط النوم
5- موت
6- الأب
7- العنبر رقم 6
8- تروس دوّارة
9- كتاب القدر

الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي 11

في كبسولة

عيد ، حسين .

روائع الأدب العالمي في كبسولة (11) / عرض وتبسيط حسين عيد . ــ ط1 ــ

القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2013 .

240 ص ؛21 سم . (روائع الأدب العالمي في كبسولة للناشئين والشباب ؛ 11)

تدمك : 9-693-293-977-978

1 - الأدب – تاريخ ونقد .

أ ــ عيد ، حسين (عرض وتبسيط) .

ب ــ السلسلة . 809

رقم الإيداع : 16796 / 2012

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى ، صفر 1434هـ - يناير 2013م .

المحتويات

مقـــدمـة

تتكون هذه الباقة الجديدة من تسعة أعمال من روائع الأدب العالمي، انعقدت (البطولة) في سبعة منها لشخصين، بينما دانت البطولة في العملين الأخيرين لشخصية رئيسية واحدة.

انطلق ثلاثة منها من (الواقع) المعاش حيث سعى أحد المغامرين الأثرياء إلى تقديم لون جديد من الصيد إلى ضيفه في رواية "اللعبة الأكثر خطورة" للأمريكي ريتشارد كونيل، بينما ظلّ مدرّس وفيّا لقناعاته مع سجين أجبروه على استقباله في قصة "الضيف" للفرنسي آلبير كامي، في حين جمع تفتح زهرة بين جارين في قصة "شجرة سفرجل يابانية" للإنجليزي جون جالزوورثي.

كما تناول عملان من ذات النوع تجربة (الموت)، تارة عند التنبؤ به في قصة "موت" للألماني توماس مان، وتارة أخرى مع موت فعلي في قصة "الأب" للسويدي بجورنستجرن بجورنسون.

ثم نقبت ثلاثة أعمال في عالم (الجنون) تارة من خلال ثنائية بين طبيب يجتهد لكشف خبايا عقل مجنون في قصة "ماوراء حائط النوم" للأمريكي هـ. بي. لوفكرافت، وتارة أخرى بالغوص في تطوّر علاقة بين طبيب عاقل

ومجنون في رواية "العنبر رقم 6" للروسي آنطون تشيكوف؛ لتتسارع الخطى مع شخصية تعيش متوحّدة على ضفاف الجنون في قصة "تروس دوارة" لأبي القصة اليابانية الحديثة ريونسكيه أكوتاجاو.

وكان الختام مع شخصية أخرى وهي تنطلق بين البشر في مراحل مختلفة من (الحياة) تحت ظلال "كتاب القدر" للكاتب الفرنسي الكبير فولتير.

وكلي أمل أن يجد فيها القراء بعض المتعة والفائدة.

حسين عيد

(مايو 2012)

للأمريكي: ريتشارد كونيل

اللعبة الأكثر خطورة

قال ويتني: "هناك جزيرة كبيرة – في مكان ما – إلى اليمين. إنّها بالأحرى غامضة".

سأل رينسفورد: "أيّ جزيرة هي؟"

أجاب ويتني: "تدعوها الخرائط القديمة "جزيرة فخ – السفن. وهو اسم موح، أليس كذلك؟ لدى البحارة رهبة كبيرة من هذا المكان. أنا لا أعرف السبب. ربّما بعض خرافات..".

أشار رينسفورد محاولا أن يمعن النظر عبر ليلة مدارية رطبة، وضح أنها تضغط بظلامها الكثيف على اليخت، قائلا: "لا أستطيع رؤيتها".

قال ويتني، وهو يضحك: "إنّ لديك عينين حادتين، وقد رأيتك تسدد وتطلق النار على حيوان الموظ الضخم على بعد أربعة أميال، وهو يتحرّك على شجيرة بنيّة ساقطة. لكن حتى أنت لا يمكنك أن ترى من أربعة أميال أو نحو ذلك خلال ليلة كاريبية غير مقمرة".

اعترف رينسفورد: "بل ولا حتى أربعة أمتار. يا للهول! إنها تشبه مخملا أسود رطبا".

خمّن بريتني: "لكنها ستكون مضيئة كفاية في "ريو". ينبغي أن نصلها خلال عدّة أيام. أتعشّم أن تكون بنادق صيد الفهد الأمريكي قد جاءت من

بيردي. ينبغي أن نحصل على صيد جيّد عند الأمازون. إنّ الصيد رياضة عظيمة" .

وافق رينسفورد: "بل هي أفضل رياضة في العالم" .

أضاف ويتني: "هي كذلك بالنسبة للصياد. لكنها ليست كذلك بالنسبة للفهد الأمريكي" .

قال رينسفورد: "لا تتحدّث عبثا، يا ويتني. أنت صيّاد في لعبة كبيرة، ولست فيلسوفا. من يهتم بما يشعر به فهد أمريكي؟" .

عقب ويتني: "ربّما يشعر الفهد الأمريكي بذلك" .

"ياه ! إنه لا يفهم" .

"على الرغم من ذلك، أعتقد أنّه يفهم شيئا واحدا .. الخوف. الخوف من الألم، والخوف من الموت" .

ضحك رينسفورد، قائلا: "هراء. لقد جعلك هـذا الطقس الحار ليّنا، يا ويتني. كن واقعيا. يتكوّن العالم من فئتين: الصيادون والطرائد. لحسن الحظ، أنني وأنت من الصيادين. هل تعتقد أننا اجتزنا الجزيرة الآن؟" .

"لا أستطيع أن أجيب في الظلام، وإن كنت آمل ذلك" .

تساءل رينسفورد: "لماذا؟" .

"لأنّ هذا المكان له سمعة سيئة" .

خمّن رينسفورد: "أكلة لحوم بشر؟" .

"قليلا ما. إذ حتى أكلة لحوم البشر لا تعيش في مثل هذا المكان الذي تخلى عنه الربّ. لكن الأمر سيدخل خبرات البحّارة، بطريقة أو بأخرى. ألم تلاحظ أنّ أعصاب الطاقم بدت سريعة الاهتياج اليوم قليلا؟" .

"ما دمت ذكرت ذلك الآن، فقد كانت غريبة قليلا. حتى القبطان نيلسون.." .

"نعم، حتى ذلك السويدي العجوز ذو العقل القويّ لدرجة أنّه قد يصعد إلى الشيطان نفسه طالبا منه ضوءا. لقد انعقدت في تلك العينين الزرقاوين نظرة مريبة لم أر مثلها من قبل أبدا. كلّ ما أمكنني أن أفهمه منه أنّ "لدى هذا المكان اسمًا شرّيرًا بين الرجال المشتغلين بصناعة البحر، يا سيدي". ثم قال لي، بصوت خطير "ألا تشعر بأيّ شيء؟" كما لو أن الهواء من حولنا كان مسمما. لا ينبغي أن تضحك الآن حين أخبرك بهذا.. إنني أشعر فعلا بشيء. كما لو كان قشعريرة مفاجئة" .

"ليس هناك أيّ نسيم بحري، والبحر ساكن مثل إطار لوحة من زجاج. لقد كنّا نتقدم قرب الجزيرة، إذن. إنّ ما شعرت به هو قشعريرة روحية، نوع من رهبة مفاجئة" .

قال رينسفورد: "ذلك محض خيال" .

"يمكن لبحار واحد مؤمن بالخرافات أن يفسد كلّ رفقته بالسفينة" .

"ربّما، لكنني أحيانا أشعر أنّ لدى البحارة حسّا إضافيا يحذرها من الخطر عندما يكونون معرضين له. أشعر أحيانا أنّ الشرّ شيء ملموس .. مع أطوال

الموجات، مثلما هو الحال مع الصوت والضوء. ويمكن، إذا جاز التعبير، أن نقول إن مكانا شريرا يبث ذبذبات شريرة. على أيّة حال، أنا سعيد لأننا نغادر هذه المنطقة. حسنا، أعتقد أنني سأعود الآن، يا رينسفورد" .

قال رينسفورد: "لست نعسانا؛ لذا سأمضي لأدخّن بايبا آخر، هناك في نهاية سطح السفينة" .

"إذًا، عمت مساء يا ويتني" .

حين جلس رينسفورد، لم يكن هناك أيّ صوت في الليل، لكن برز ارتجاف مكتوم للمحرّك الذي يقود اليخت بسرعة خلال الظلام، مع حفيف تموّج المياه وهي تغسل المروحة.

استلقى رينسفورد على كرسي الباخرة متراخيا على كتلة ورد برّي مفضلة لديه. كانت حساسية كسل الليل قد هيمنت عليه. فكّر "إنّ الجوّ شديد الإظلام لدرجة أنّه يمكنني أن أنام دون أن أغلق عيني، سيكون الليل جفنيّ.." .

أذهله صوت مفاجئ. سمعه بعيدا من ناحية اليمين، بأذنيه اللتين كانتا خبيرتين بمثل هذه الأمور، ولا يمكن أن يخطئا. سمع الصوت مرّة أخرى، وثالثة. "لقد أطلق شخص ما، في مكان بعيد وسط الظلام، النار ثلاث مرّات" .

قفز رينسفورد متحرّكا بسرعة إلى الحاجز المعدني. ثبت عينيه في الاتجاه الذي جاء منه الدويّ، لكن ذلك بدا كمحاولة أن ترى من وراء ستار. قفز فوق الحاجز المعدني موازنا نفسه هناك ليحصل على مزيد من الارتفاع،

فارتطم غليونه بحبل قذف به من فمه. اندفع وراءه، ثم انطلقت صرخة قصيرة أجشّة من شفتيه عندما أدرك أنه قد وصل إلى أبعد ممّا ينبغي، وفقد توازنه. كانت الصرخة تدوي بعيدا قصيرة بينما غمرت مياه منطقة بحر الكاريبي الحارة رأسه.

سعى جاهدا للوصول إلى السطح محاولا الصراخ. لكن مياه اليخت المسرع صفعته على وجهه وغمرته، وكاد الماء المالح يسدّ فمه المفتوح ويخنقه. ضرب الماء ضربات قوية بعد انحسار أضواء اليخت، لكنه توقف قبل أن يكمل خمسين قدما. واتته سكينة، لم تكن هي المرّة الأولى التي يشعر بها في مكان ضيّق. فكّر في أن هناك فرصة أن تسمع صرخاته من قبل شخص على اليخت، لكن تلك الفرصة تضاءلت وتضاءلت أكثر، وهو يرى اليخت مستمرا في اندفاعه. تخلص من ملابسه وصرخ بكلّ قوته. أصبحت أضواء اليخت خافتة، وتلاشت اليراعات باستمرار، ثم أصبح مشوّشا كليّة وسط الليل.

سمع رينسفورد صوتا بزغ من الظلام، صوت صراخ عال، صوت حيوان في أقصى حالات الألم والرعب.

لم يستطع التعرّف على الحيوان الذي أصدر ذلك الصوت، ولم يحاول أن يفعل، بل سبح بحيوية باتجاه الصوت. سمع الصوت مرّة أخرى، ثم جرى اختزاله بواسطة ضوضاء أخرى، واضحة، متقطعة.

تمتم رينسفورد مستمرا في السباحة: "إنها طلقة مسدس" .

جلبت عشر دقائق من جهود حثيثة صوتا آخر لأذنيه – أكثر ترحيبا ممّا سمع في أيّ وقت مضى – من غمز ولمز وهدر من البحر الذي يتكسّر على

شاطئ صخري. كان قريبا تماما من الصخور قبل أن يراها، وكان يمكن أن يتحطم عليها في ليلة أقلّ هدوءا. سحب نفسه من دوامات المياه بما تبقى لديه من قوة. وبدأت أنقاض خشنة في البروز بشكل غامض مبهم، فأجبر نفسه على تجاوزها يدا فوق يد. وصل لاهثا مفرود اليدين إلى مكان مسطح على القمة. رأى غابات كثيفة وصلت إلى حافة المنحدرات. لم يهتم رينسفورد عندئذ بما اعترض طريقه من أشجار متشابكة وشجيرات مثلت له أخطارا ملموسة. كلّ ما عرفه أنه في مأمن من عدوه البحر، وذلك التعب الهائل الهابط عليه. رمى بنفسه إلى أسفل على حافة الغابة، وهوى مندفعا دون رويّة في أعمق نوم مارسه طوال حياته.

عندما فتح عينيه، عرف من موقع الشمس أنّه في وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالي. كان النوم قد منحه قوّة جديدة، وسرى إليه جوع حاد. تطلع حوله، تقريبا بانشراح.

فكّر: "حيث توجد طلقات مسدس، يوجد هناك رجال. وأينما يوجد رجال، سيوجد طعام". لكنه تساءل أيّ نوع من الرجال في مثل ذلك المكان المحظور؟ رأى على الشاطئ جبهة ثانوية من غابة متصلة، متشابكة.

لم ير أيّ علامة على وجود أثر من خلال شبكة مترابطة بشكل وثيق من أعشاب وأشجار، وكان من السهل المضي على طول الشاطئ، وقد تعثر رينسفورد على طول امتداد الماء. ثم توقف، ليس بعيدا عن المكان الذي حطّ رحاله فيه.

هناك مخلوق جريح – بالدليل، حيوان كبير – سحق الشجيرات تقريبا، ثم سحق الأعشاب أسفل الغابة، وهتك الطحالب. كما كانت هناك مساحة

من أعشاب ملطخة بلون قرمزي. وسرعان ما التقطت عينا رينسفورد شيئا صغيرا متألقا ليس بعيدا. كان خرطوشة فارغة.

لاحظ: "أنها من عيار 22. ينبغي أن يكون الحيوان كبيرا إلى حدّ بعيد أيضا، وكان الصياد متمالكا أعصابه عندما تصدّى له ببندقية خفيفة. من الواضح أن شخصا غاشما خاض معركة. أفترض أنّ أول ثلاثة أعيرة سمعها وقعت حين هيّج الصيّاد فريسته وأصابها. وكانت الطلقة الأخيرة عندما لاحقه إلى هنا حيث أنهاه" .

فحص أرض الميدان عن كثب، وعثر على ما كان يأمل أن يجد .. بصمة حذاء الصيّاد المطبوعة. وقد أشارت إلى امتداد المنحدر في الاتجاه الذي كان ماضيا عبره. هرول فارغ الصبر على طول المدى، منزلقا على زند خشب فاسد أو حجر سائب، محرزا تقدما بينما الليل يرخي سدوله على الجزيرة.

استشرى ظلام كثيب عبر البحر والغابة، عندما شاهد رينسفورد أضواء من بعيد. توجّه إليها مستديرا مع خط الساحل، وكانت فكرته الأولى أنها قد جاءت من قرية؛ لأنّه كان هناك عديد منها. لكن بينما هو يمضي على طول الساحل، رأى باستغراب شديد أنّ كلّ الأضواء كانت صادرة من مبنى واحد، ضخم. بناء كبير يتكوّن من أبراج مدببة ترتفع عاليا في الظلام. رسمت عيناه خطوطا عريضة غامضة لقصر ضخم، كان قد أقيم على جرف عال، وغاصت ثلاثة جوانب من منحدراته إلى حيث يلعقها البحر بشفتيه بنهم وسط الظلال.



فكّر رينسفورد: "سراب". لكن لم يكن سرابا ما وجده حين فتح بوابة حديدية مرتفعة الطول. كانت هناك سلمات حجر حقيقية بما فيه الكفاية، مع باب ضخم تتوسطه مطرقة حقيقية أيضا، معلقة هناك وسط جوّ لا واقعي.

رفع المطرقة، فارتفع صوت حشرجة فظيعة، كما لو أنّها لم يسبق استخدامها. تركها تسقط، وأذهله صوت طرقتها المرتفع. اعتقد أنّه سمع صوت خطوات بالداخل، رغم أن الباب ظلّ مغلقا. رفع رينسفورد المطرقة الثقيلة مرّة أخرى، وتركها تسقط. عندئذ فتح الباب – فتح فجأة كما لو بفعل انطلاقة – ووقف رينسفورد مبهورا بنهر من ضوء ذهبي وامض يتدفق من الداخل. كان أوّل شيء استشفته عينا رينسفورد هو أكبر رجل شاهده على الإطلاق.. مخلوق ضخم، قويّ البنية، ذو لحية سوداء تمتد حتى الخصر، ممسكا في يده مسدسا له ماسورة طويلة، وقد سدده مباشرة إلى قلب رينسفورد.

نظرت عينان صغيرتان إلى رينسفورد، بعيدا عن اللحية المتشابكة.

"لا تندهش"، قال رينسفورد مع ابتسامة أمل أن تكون منزوعة السلاح. ثم استطرد: "أنا لست لصّا. لقد سقطت من يخت. اسمي سانجر رينسفورد من مدينة نيويورك".

لم تتغيّر نظرة التهديد في العينين. كان المسدس مصوّبا بشكل صارم كما لو كان العملاق تمثالا. لم يعط أيّ إشارة تنم عن فهم كلمات رينسفورد، أو أنّه سمعها. كان يرتدي زيّا رسميا، زيا أسود مزيّنا بقماش استراخان رمادي اللون.

كرر رينسفورد كلماته مرّة أخرى "أنا سانجر رينسفورد من نيويورك. وقعت من يخت. وأنا جائع" .

كانت إجابة الرجل الوحيدة هي وضع إبهامه على زناد مسدسه. ثم رأى رينسفورد يد الرجل الحرة ترتفع إلى جبهته بتحيّة عسكرية، ورآه يصفق عقبيه معا، ويقف في حالة انتباه، بينما كان هناك رجل آخر يهبط سلمات الرخام الواسعة منتصبا، نحيلا في ملابس المساء. تقدّم من رينسفورد، وأمسك بيده. قال بصوت مختلط يتسم بلهجة خفيفة منحته دقة مضافة وتأنّيًا: "إنّه لمن دواعي سروري ويشرفني أن أرحّب في بيتي بالسيد سانجر رينسفورد، الصياد المشهور" .

هزّ رينسفورد يد الرجل تلقائيا. أوضح الرجل: "أترى، لقد قرأت كتابك عن صيد فهود الثلوج في التبت. أنا جنرال زاروف" .

كان انطباع رينسفورد الأول أنّ الرجل كان وسيما بشكل متفرّد، وكان انطباعه الثاني أنّ هناك تقريبا على وجه الجنرال أصالة من نوع غريب. كان رجلا طويل القامة تخطّى منتصف العمر، شعره أبيض زاه، لكن رمشي عينيه كانا سميكين مع شارب عسكري محدد أسود مثل الليل الذي وفد منه رينسفورد. كانت عيناه سوداوين ولامعتين أيضا. وقد برزت عظمتا وجنتيه، مع أنف أفطس، ووجه أسود نحيل، وجه رجل اعتاد على إعطاء الأوامر، وجه أرستقراطي. استدار الجنرال إلى العملاق بزيّه الرسمي، وأشار إليه إشارة معينة، فأبعد العملاق مسدسه، ثم حيّا وانصرف.

عقب الجنرال: "إيفان هو زميل قويّ بشكل لا يصدق. لكنه لسوء الحظ أصمّ أبكم. زميل بسيط، لكن أخشى أنه مثل بقية أبناء جنسه، متوحّش قليلا".

"هل هو روسي؟"

أجاب الجنرال مع ابتسامة أظهرت شفتين حمراوين وأسنانًا مدببة: "إنّه من القوقاز، وكذلك أنا".

ثم أضاف "تعال. لا ينبغي أن نتحدّث هنا. يمكننا أن نتحدّث لاحقا. الآن، أنت تريد ملابسا، وطعاما، وراحة. ستنالها جميعا. هذا هو المكان الأكثر راحة".

رجع إيفان إلى الظهور، فتحدّث معه الجنرال بشفتين تحركتا دون أن تصدرا أيّ صوت.

قال الجنرال: "اتبع إيفان، لو سمحت، يا سيد رينسفورد. كنت على وشك تناول وجبة عشائي عندما جئت. سأنتظرك. ستجد ملابسي مناسبة لك، كما أعتقد".

تبع رينسفورد العملاق الصامت إلى غرفة نوم ضخمة، ذات سقف مشعّ، مع سرير له مظلة يكفي ستة رجال. أخرج إيفان بذلة مسائية، وعندما راح رينسفورد يلبسها لاحظ أنها وردت من خياط في لندن، قطع القماش وخاطه بذوق لا يقلّ عن رتبة دوق.

كانت غرفة الطعام التي قاده إليها إيفان رائعة بأكثر من أسلوب. كانت هناك روعة القرون الوسطى، وقد قدمت قاعة "باروني" إقطاعية مع

ألواحها من البلوط، سقفها مرتفع، ذات موائد مصنعة يمكن الجلوس عليها أزواجا لتناول الطعام. وحول القاعة وضعت رؤوس عديد من حيوانات: أسود، نمور، أفيال، حيوان الموظ، ودببة. عينات مثالية كبيرة لم يسبق لرينسفورد أن رآها من قبل. وكان الجنرال يجلس وحيدا على المائدة الرئيسية.

اقترح الجنرال: "سنتناول الكوكتيل، يا سيد رينسفورد".

كان الكوكتيل الذي جرى تقديمة جيّدا، ولاحظ رينسفورد أن تجهيزات المائدة كانت من أروع مستوى: من كتان، كريستال، فضة، وصيني.

كانا يتناولان حساء البورش الروسي الغني، الأحمر، مع قشدة مخفوقة على الذوق الروسي. قال الجنرال زاروف بلهجة أشبه ما تكون باعتذار: "نحن نبذل قصارى جهدنا للحفاظ على وسائل الراحة الحضارية هنا. أرجو أن تغفر أيّ ثغرات. لقد بذلنا جهدنا وفق ذلك المسار، كما تعرف. هل تعتقد أنّ الشمبانيا قد عانت من رحلتها الطويلة بالمحيط؟".

أعلن رينسفورد: "على الإطلاق". كان يرى أن الجنرال مفكّر عظيم، ومضيف عذب المعاشرة، ومواطن عالمي حقيقي. لكن كانت هناك سمة صغيرة في الجنرال جعلت رينسفورد غير مرتاح. إذ كلما رفع بصره عن طبقه، كان يجد الجنرال يتفحّصه مثمنا له بالكاد.

قال جنرال زاروف: "ربّما، فوجئت بأنني أعرف اسمك. كما ترى، فإنني أقرأ كلّ كتب الصيد المنشورة بالإنجليزية، والفرنسية، والروسية. إن لديّ هوى وحيدًا في حياتي، يا سيّد رينسفورد، هو الصيد".

قال رينسفورد، بينما كان يأكل فيليها رقيقا خاصا مطبوخا بشكل جيّد: "إنّ لديك بعض رؤوس رائعة، هنا. هذا أضخم رأس جاموس رأيته على الإطلاق".

"أوه، ذلك الرفيق. نعم، لقد كان وحشا".

"هل هاجمك؟".

أجاب الجنرال: "ألقى بي على شجرة. كسر جمجمتي. لكنني حصلت على حيوان همجي متوحّش".

قال رينسفورد: "لقد اعتقدت دائما أنّ صيد جاموس الرأس هي المباراة الأكثر خطورة".

لم يعقب الجنرال لوهلة. كان يبتسم ابتسامة غريبة بشفتيه الحمراوين. ثم قال ببطء: "لا. أنت مخطئ، يا سيدي. إنّ صيد جاموس الرأس ليست هي المباراة الأكثر خطورة".

ثم ارتشف بعض النبيذ، واستطرد قائلا بنفس لهجته البطيئة: "هنا، حكرا على هذه الجزيرة، أصطاد بالمباراة الأكثر خطورة".

عبّر رينسفورد عن دهشته "هل هناك مباراة كبيرة تجرى على هذه الجزيرة؟".

أومأ الجنرال "الأكبر"

"حقا؟".

"أوه، ليس هنا بطبيعة الحال. ينبغي أن أجهّز الجزيرة".

تساءل رينسفورد: "ماذا استوردت أيها الجنرال؟ نمورا؟" .

ابتسم الجنرال قائلا: "لا. لقد توقفت النمور عن أن تثير اهتمامي منذ عدّة سنوات. لقد استنفدت إمكاناتها، كما ترى. لم يبق أيّ تهديد، أيّ خطر حقيقي من النمور. إنني أعيش من أجل الخطر، يا سيد رينسفورد" .

تناول الجنرال من جيبه علبة سجائر ذهبية، وعرض على ضيفه سيجارة طويلة بطرف من الفضة، كانت معطرة، تعطي رائحة مثل البخور.

قال الجنرال: "سيكون لدينا، أنا وأنت، بعض من صيد عظيم. سأكون بالغ السعادة أن أستضيفك" .

تساءل رينسفورد: "لكن أيّ مباراة؟ " .

قال الجنرال: "سأقول لك. سيكون ذلك أمرا مسليا، كما أعرف. أعتقد أنني قد أقول بكل تواضع، إنني قد فعلت شيئا نادر الحدوث. لقد اخترعت مثيرا جديدا. هل أصبّ لك كأسا آخر من مشروب البورت؟" .

"شكرا لك، أيّها الجنرال" .

ملأ الجنرال كأسيهما، ثم قال: "جعل الله بعض الرجال شعراء. جعل بعضهم ملوكا، وبعضهم متسولين. وقد جعلني صيّادا. خلقت يداي من أجل الزناد، كما قال أبي. كان رجلا شديد الثراء يمتلك ربع مليون فدان في شبه جزيرة القرم، كما كان رياضيا متحمّسا. عندما كنت في الخامسة من عمري أعطاني بندقية صغيرة مصنوعة خصيصا في موسكو من أجلي، كي أطلق النار على العصافير. وعندما أطلقت النار على بعض الديكة الرومية لم

يعاقبني، بل أثنى على رمايتي. وقد قتلت دبّي الأول في القوقاز عندما كنت في العاشرة. كانت حياتي كلها صيدا واحدا طويلا. ذهبت إلى الجيش – كما كان متوقعا من أولاد النبلاء – ولفترة كنت في فرع من سلاح فرسان القوقاز، لكن اهتمامي الحقّ كان دائما في الصيد. وقد مارست كلّ مباراة للصيد من أيّ نوع في أيّ أرض. وربّما يكون من المستحيل بالنسبة لي أن أقول كم عدد الحيوانات التي قتلتها" .

نفث الجنرال دخان سيجارته. وأضاف: "بعد الهزيمة في روسيا تركت البلد لأنّه كان تصرفا غير حكيم أن يستمرّ ضابط من ضباط القيصر في البقاء هناك. كثير من نبلاء الروس فقدوا كلّ شيء. لكن، لحسن حظي، كنت قد استثمرت بكثافة في الأوراق المالية الأمريكية، لذلك لم يتحتم عليّ أن أفتتح مقهى في مونت كارلو أو أقود سيارة أجرة في باريس. بطبيعة الحال، استمررت في صيد حيوان رمادي اللون في الـ"روكيز" خاصتكم، والتماسيح في نهر الجانج، ووحيد القرن في شرق إفريقيا. وفي إفريقيا ضربني جاموس الرأس وأرقدني مدّة ستة أشهر. وحالما تعافيت توجهت نحو الآمازون لصيد الفهود الأمريكية؛ لأنني سمعت أنّها كانت ماكرة بشكل غير عادي. لكنها لم تكن كذلك" .

تنهّد القوقازي: "لم تكن مناسبة على الإطلاق لصيّاد ذكي ومعه بندقية على مستوى رفيع. لقد أصبت بخيبة أمل مريرة. وذات ليلة كنت مستلقيا في خيمتي أعاني من صداع رهيب، عندما راودتني فكرة رهيبة. لقد بدأ الصيد يثير سأمي! والصيد، كما أتذكر، كان قد أصبح حياتي. وقد سمعت

أن رجال الأعمال في أمريكا غالبا ما يتحوّلون إلى أشلاء عندما يتخلون عن أعمالهم التي أصبحت حياتهم" .

قال رينسفورد: "نعم، هذا يحدث" .

ابتسم الجنرال قائلا: "لم أكن أرغب في التحوّل إلى أشلاء. يجب أن أفعل شيئا. كان عقلي عقلا تحليليا، يا سيد رينسفورد. ممّا لاشك فيه أنّ هذا هو السبب في أنني أستمتع بمشاكل المطاردة" .

"بدون شكّ، أيها الجنرال زاروف" .

استطرد الجنرال: "لذلك سألت نفسي لماذا لم يعد الصيد يسحرني؟ إنك أكثر شبابا مني، يا سيد رينسفورد، ولم تصطد بقدري، لكن ربّما يمكنك تخمين الإجابة" .

"ماذا كانت؟" .

"ببساطة، لقد توقف الصيد عن أن يكون ما تسميه "عرضا رياضيا". أصبح أكثر سهولة. إنني أحصل دائما على طريدتي. دائما. ليس هناك حلّ أعظم من الكمال" .

أشعل الجنرال سيجارة جديدة.

"ليس لأيّ حيوان أيّة فرصة معي أكثر من ذلك. ليس ذلك تباهيا، بل هو نوع من يقين رياضي. ليس لدى الحيوان سوى ساقيه وغريزته. غريزة لا تناسب تحكيم العقل. عندما فكرت في ذلك كانت تلك لحظة مأساوية بالنسبة لي، أستطيع أن أقول ذلك" .

انحنى رينسفورد عبر الطاولة محاولا استيعاب ما يقوله مضيفه.

استطرد الجنرال: "جاءني كإلهام ما ينبغي عليّ القيام به" .

"وماذا كان ذلك؟" .

ابتسم الجنرال ابتسامة شخص واجه عقبة وتغلب عليها بنجاح، ثم قال: "كان علي ابتكار حيوان جديد لاصطياده" .

"حيوان جديد؟ أنت تمزح؟" .

قال الجنرال: "لا، على الإطلاق. إنني لا أمزح أبدا حول الصيد. لقد احتجت حيوانا جديدا، ووجدت واحدا. لذلك اشتريت هذه الجزيرة، وبنيت هذا البيت، وهنا أقوم بصيدي. إن الجزيرة مثالية لأغراضي.. هناك أدغال مع متاهة بينها تلال، مستنقعات، .." .

"لكن ماذا عن الحيوان، يا جنرال زاروف؟" .

قال الجنرال: "أوه ، إنها توفر لي الصيد الأكثر إثارة في العالم. ليس هناك أيّ صيد آخر يمكن أن يقارن للحظة مع هذا. إنني أصطاد كلّ يوم، ولا يصيبني الملل الآن أبدا؛ لأنّ لديّ طريدة تناسب ذكائي" .

ظهرت الحيرة على وجه رينسفورد.

أوضح الجنرال: "أردت أن أصطاد الحيوان المثالي. لذلك قلت "ما هي أفضل سمات الصيد المثالي؟" وكان الجواب، بالطبع، يجب أن يكون لديه شجاعة، دهاء، وقبل أيّ شيء أن يكون قادرا على تحكيم العقل" .

اعترض رينسفورد: "لكن لا يوجد حيوان عاقل" .

قال الجنرال: "يا زميلي العزيز.. هناك من يمكنه ذلك" .

لهث رينسفورد: "لكن لا يمكنك أن تعني.." .

"ولم لا؟" .

"لا أستطيع أن أصدّق أنّك جاد، يا جنرال زاروف. إنّ هذه نكتة مروّعة" .

"ولماذا لا أكون جادا؟ انني أتكلم عن الصيد" .

"صيد؟ بنادق عظيمة، يا جنرال زاروف. إنّ ما تتحدث عنه هو قتل" .

ضحك الجنرال بانطلاق كامل. نظر إلى رينسفورد متسائلا: "أرفض أن أصدّق أن رجلا شابا محدثا متحضرا يلجأ - كما يبدو - إلى أفكار رومانسية حول قيمة الحياة البشرية. لقد جربت بالتأكيد في الحرب.." .

أنهى رينسفورد الجملة كاظما غيظه: "لا تجعلني أتغاضى عن جريمة قتل بدم بارد" .

هزّ الضحك الجنرال، وهو يقول: "كم أنت ظريف للغاية! لا يتوقع المرء أن يقابل في الوقت الحاضر شابا من طبقة مثقفة، حتى في أمريكا، بمثل هذه السذاجة، وإذا جاز لي القول، صاحب وجهة نظر فيكتورية معتدلة. إنّه تماما مثل العثور على علبة سعوط في سيارة ليموزين. آه ، حسنا، لاشك أنّ لديك أجدادا بروتستانت. وهكذا، يبدو أنّ ذلك لدى كثير من الأمريكيين.

سأراهن على أنّك ستنسى مفاهيمك الخاصة عندما تمضي إلى الصيد معي. لقد قمت بإثارة مشوّقة حقيقية جديدة بالتعامل معك، يا سيد رينسفورد".

"شكرا لك، أنا صيّاد، ولست قاتلا".

قال الجنرال بصوت هادئ تماما: "مرّة أخرى، يا عزيزي، تردد هذه الكلمة المكروهة. لكني أعتقد أنني يمكن أن أبيّن لك أنّ أسس تفكيرك غير منطقية تماما".

"نعم؟".

"الحياة للقوي، تعاش بواسطة القوي، وإذا احتاج الأمر تنتزع بواسطة القوي. لقد وضع الضعيف هنا كي يمنح القوي المتعة. إنني قويّ. لماذا لا أستخدم موهبتي؟ فإذا أردت أن أصطاد، لماذا لا أفعل؟ إنني أصطاد حثالة الأرض: بحارة من سفن، متسولين مشردين، سود، صينيين، بيض، ومنغوليين.. إنّ حصانا أصيلا، أو كلب صيد يستحق درجة أكثر منهم".

قال رينسفورد بحرارة: "لكنهم رجال".

قال الجنرال: "بالضبط. وهذا هو السبب في أنّي أستخدمهم. إنّ ذلك من دواعي سروري. أنهم يعقلون، وهو ما يعتبر تعديلا. لذلك فهم خطرون".

"لكن من أين تحصل عليهم؟".

رفرف جفن الجنرال الأيسر بصوت، وهو يقول: "تسمى هذه الجزيرة فخّ السفن. أحيانا يرسلها إله غاضب من أعالي البحار. وفي أحيان أخرى

عندما لا يكون هناك تدبير طيّب، فإنني أساعد قليلا. تعال معي إلى النافذة".

ذهب رينسفورد إلى النافذة، وتطلع إلى البحر.

هتف الجنرال، مشيرا إلى الليل: "انظر! إلى هناك!".

رأت عينا رينسفورد ظلاما فقط، ثم ضغط الجنرال على زر، فرأى رينسفورد ومضة أضواء بعيدا في البحر.

ضحك الجنرال ضحكة خافتة، قائلا: "إنها تشير إلى وجود قناة، حيث لا شيء هناك، سوى صخور عملاقة ذات حواف شائكة تقبع مثل وحش بحري مفتوح الفكين يمكنه سحق أيّ سفينة بسهولة مثلما أسحق هذه الجوزة". وأسقط جوزة على الأرض الصلبة وضغط عليها بكعبه فطحنها، ثم قال كما لو كان يجيب عرضا عن سؤال: "آه، نعم. إن لديّ كهرباء. ونحن نحاول أن نكون متحضرين هنا".

"متحضّر؟ وأنت تسقط الرجال قتلى؟".

كان هناك أثر من غضب في عيني الجنرال السوداوين، استمرّ لمدّة ثانية فقط، ثم قال بأسلوب أكثر لطفا: "يا عزيزي، أيّ رجل صالح أنت؟! إنني أؤكد لك أنني لا أفعل الشيء الذي توحي به. سيكون ذلك وحشيّا. إنني أعامل هؤلاء الزوّار بكلّ احترام. إنهم يحصلون على مواد غذائية كثيرة مع ممارسة الرياضة. إنهم يصلون إلى حالة بدنيّة رائعة. سترى بنفسك غدا".

"ماذا تقصد؟"

ابتسم الجنرال: "سوف تزور مدرستي للتدريب. إنّها في القبو. لديّ حوالي عشرة تلاميذ الآن في الأسفل هناك. إنّهم من منتزه سان ليكار الأسباني، كان من سوء حظهم أن اصطدموا بالصخور هناك. هي مجموعة، يؤسفني أن أقول إنّها أقل شأنا. عينات فقيرة وأكثرية اعتادت سطح السفينة بدلا من الغابة" .

رفع يده، فأحضر "إيفان" الذي كان يعمل كنادل قهوة تركية غامقة. أمسك رينسفورد لسانه بجهد عن النطق.

أضاف الجنرال مستطردا: "إنّها مجرّد لعبة، كما ترى. وإذا اقترح عليّ أحدهم أن نذهب للصيد. أمنحه إمدادا غذائيا وسكين صيد ممتازًا. وأمنحه كبداية ثلاث ساعات. يكون عليّ أن أتبعه مسلحا بمسدس من أصغر عيار فقط. إذا أمكن لفريستي أن تتملص منّي ثلاثة أيام كاملة، فإنّه يفوز بالمباراة. وإذا وجدته" .. ابتسمَ الجنرال: "فإنّه يخسر" .

"لتفترض أنّه رفض أن يصطاد؟" .

قال الجنرال: "آه ، إنني أمنحه خيارا، بطبيعة الحال. ليس من الضروري أن يلعب تلك المباراة إذا لم يرغب في ذلك. إذا لم يرغب في الصيد، أسلمه إلى إيفان. كان لإيفان شرف أن يخدم ذات مرّة كضابط يجلد المجرمين لدى القيصر الأبيض العظيم، وكان لديه أفكاره الرياضية الخاصة. ودائما، دائما يا سيد رينسفورد، كانوا يختارون الصيد" .

"وإذا فازوا؟"

اتسعت الابتسامة على وجه الجنرال، وهو يقول: "إنني لم أخسر حتى اليوم"، وأضاف على عجل "لا أريد منك أن تفكر في كثرثار يا سيد رينسفورد. تحمّل كثير منهم أبسط أنواع المشاكل البدائية فقط. وكنت في بعض الأحيان أثير الشخص المتوحّش. وتقريبا كان يكتب لي الفوز دائما. لكن قد يتحتم عليّ في نهاية المطاف أن أستخدم كلاب الصيد" .

"كلاب الصيد؟"

"من هذا الطريق، من فضلك. سأريك" .

قاد الجنرال رينسفورد إلى نافذة. صدرت أضواء خافتة من النافذة فصنعت أنماطا غريبة في الفناء أدناه، وأمكن لـ"رينسفورد" أن يرى عشرات من أشكال سوداء ضخمة تتحرّك، وعندما تحوّلت ناحيته التمعت عيونها بلون أخضر.

علق الجنرال: "هناك كثير جيّد منها، نوعا ما، كما أعتقد. يجري إطلاقها في السابعة مساء كلّ ليلة. إذا أراد أيّ شخص الوصول إلى بيتي – أو الخروج منه – سيحدث له شيء مؤسف تماما". وراح يهمهم بمقطع من أغنية "فولي بيرجير".

قال الجنرال: "والآن، أريد أن أريك مجموعتي الجديدة من الرؤوس. هل تأتي معي إلى المكتبة؟"

قال رينسفورد: "آمل أن تعذرني الليلة، يا جنرال زاروف. فأنا حقا لست على مايرام" .

استفسر الجنرال بجزع: "آه ، حقا؟ حسنا، أعتقد أن ذلك أمر طبيعي، بعد سباحتك الطويلة. أنت تحتاج إلى نوم جيّد ومريح. سوف تشعر غدا كأنّك رجل جديد، أراهن على ذلك. ثم سنقوم بالصيد، إيه؟ لديّ آفاق واعدة إلى حدّ ما..". أسرع رينسفورد بالانصراف من الغرفة.

دعاه الجنرال: "عفوا لعدم ذهابك معي الليلة. أتوقع رياضة عادلة إلى حدّ ما.. قوية، كبيرة، رهيبة. أنت تبدو واسع الحيلة.. حسنا، عمت مساء، يا سيد رينسفورد، أتمنى لك ليلة سعيدة مريحة" .

كان السرير جيّدا، والمنامة من أنعم أنواع الحرير، وكان رينسفورد متعبا في كلّ نأمة من كيانه، لكن لم يمكنه مع ذلك أن يهدّئ دماغه بجرعة من النوم. رقد مفتوح العينين. ظنّ مرّة أنه سمع خطوات متلصصة في الممر خارج غرفته. سعى إلى فتح الباب، لكنه لم يفتح. ذهب إلى النافذة وتطلع إلى الخارج. اكتشف أنّ غرفته تقع عاليا في أحد الأبراج. كانت أضواء القصر الآن مطفأة، وهناك ظلام وصمت، لكن بدا في الأفق جزء من قمر شاحب، وعلى ضوئه تمكن من رؤية الفناء بشكل مبهم. هناك أشكال سوداء ساكنة مجدولة بداخل وخارج نمط الظلّ. سمعته كلاب الصيد من النافذة، فنظرت إلى أعلى، مترقبة بعيونها الخضراء. تراجع رينسفورد إلى السرير حيث استلقى ثانية. حاول أن يضع نفسه في حالة نوم بأساليب شتى، وحقق بعض النوم عندما بدأ الصباح يشرق. ثم سمع بعيدا في الغابة صوت طلقة مسدس خافتة.

لم يظهر الجنرال زاروف حتى وقت الغداء. وحين برز كان يرتدي طاقما رائعا من التويد. بدا مهموما حول حالة رينسفورد الصحية.

تنهّد الجنرال: "أما بالنسبة لي، فإني أشعر أنني لست على مايرام. إنني قلق، يا سيد رينسفورد. وقد محّصت آثار شكواي القديمة الليلة الماضية" .

وردا على لمحة رينسفورد المتسائلة قال الجنرال: "الملل. الملل" .

ثم ، متناولا قطعة أخرى من فطيرة محلاة، أوضح الجنرال: "لم يكن الصيد جيّدا الليلة الماضية. لقد فقد زميل رأسه. قام بمحاولة مباشرة لم تقدّم حلا لأيّ مشاكل على الإطلاق. هذه هي مشكلة هؤلاء البحارة، إنّ لديهم عقولا باهتة يبدأون بها. ولا يعرفون كيف يجتازون الغابات. إنهم يفعلون أشياء غبيّة، واضحة. إنها الأكثر إزعاجا. هل لك في كأس آخر من الشابلي، يا سيد رينسفورد؟" .

قال رينسفورد بحزم: "أيها الجنرال، أتمنى مغادرة هذه الجزيرة فورا" .

رفع الجنرال حاجبيه الكثيفين. بدا أنّه أوذي. "لكن يا زميلي العزيز" ، احتجّ الجنرال ، "لقد جئت توّا. إنّك لم تقم بالصيد.." .

قال رينسفورد: "أودّ أن أذهب اليوم" .

رأى عيني الجنرال السوداوين الخامدتين وهما تتفحصانه. فجأة أشرق وجه الجنرال. ملأ كأس رينسفورد من شراب "الشابل" الجليل من زجاجة مترِبة.

قال الجنرال: "الليلة سنصطاد أنت وأنا" .

هزّ رينسفورد رأسه، قائلا: "لا، أيها الجنرال. أنا لن أصطاد" .

هزّ الجنرال كتفيه، وتناول برقّة عنبا منزليا، قائلا: "كما يحلو لك، يا صديقي. الخيار كله يقع على عاتقك. لكن ألا أغامر حين أوضّح أنّ فكرتي عن الرياضة أكثر يسرا من إيفان؟" .

أومأ برأسه نحو الزاوية حيث وقف العملاق، مقطبا، وقد تقاطع ذراعاه السميكان على مقاس سعة صدره.

صاح رينسفورد: "أنت لا تعني.." .

قال الجنرال: "يا صديقي العزيز. ألم أقل لك دائما ما أعنيه حول الصيد؟ إنّ هذا حقا مصدر إلهام. لقد شربت في صحة عدوّ يعادل صلابتي أخيرا" .

رفع الجنرال كأسه، لكن رينسفورد جلس يحدّق إليه.

قال الجنرال بحماس: "ستجد أنّ هذه مباراة تستحق اللعب. عقلك أمام عقلي. براعتك فيما يتصل بالغابات أمام براعتي. قوتك وقدرتك على التحمّل أمام قوتي وقدرتي. شطرنج في الهواء الطلق! مباراة لا تخلو من قيمة، أليس كذلك؟!" .

سأل رينسفورد بصوت مبحوح: "وإذا فزت.."

قرأ الجنرال زاروف ما كان رينسفورد يفكر فيه، فقال: "سوف أسلم بهزيمتي إذا لم أجدك قبل منتصف ليل اليوم الثالث. ستضعك سفينتي الشراعية على البرّ قرب أقرب بلدة" .

قال القوقازي "أوه ، يجب أن تثق بي. سأعطيك كلمتي كرجل نبيل ورياضي. وبالمقابل، بالطبع، يجب أن توافق على ألا تقول شيئا عن زيارتك هنا" .

قال رينسفورد: "سوف أوافق على أيّ شيء من هذا النوع" ؟

قال الجنرال: "آه ، في هذه الحالة.. لكن لماذا نناقش ذلك الآن؟ بعد ثلاثة أيام يمكننا مناقشة الأمر خلال تناول زجاجة "فون كيلوت"، إلا إذا.." .

ارتشف الجنرال نبيذه، ثم كرجل أعمال يدفع إلى العمل، قال لرينسفورد: "سوف يمدّك إيفان بملابس صيد، طعام، وسكين. أقترح أن ترتدي الأخفاف لأنّها تترك أثرا أقلّ. وأقترح أيضا أن تتجنب المستنقع الكبير في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة. نحن نسميها مستنقع الموت. هناك رمال متحرّكة. لقد حاول زميل أحمق في ذلك الجزء. الجزء المؤسف أنّ الكلب "العازر" تتبعه. يمكنك تخيّل مشاعري يا سيد رينسفورد. لقد أحببت "العازر"، فقد كان أفضل كلب حراسة في مجموعتي. حسنا، لابد أن أرجوك أن تعذرني الآن. إنني آخذ دائما قيلولة بعد الغداء. أخشى أنّه سيكون من الصعوبة بمكان أن يتوفر لك وقت لنوم القيلولة، وأنت تريد أن تبدأ بلا شكّ. لن أتبعك حتى الغسق. سيكون الصيد بالليل أكثر إثارة مقارنة بالنهار، ألا تظنّ ذلك؟ وداعا، يا سيد رينسفورد، وداعا" .

غادر الجنرال زاروف الغرفة متمهّلا بانحناءة مجاملة عميقة. دخل إيفان من باب آخر حاملا تحت ذراعه الأيسر ملابس صيد كاكيّة اللون، وحقيبة ظهر لمواد غذائية، وغمدًا جلديًّا يحتوي على سكين صيد طويلة بيضاء. ويحمل في يده اليمنى مسدسا جاهزا ممدودا من داخل وشاح قرمزي حول خصره.

خاض رينسفورد طريقه بين دغل لمدّة ساعتين، ثم قال من خلال أسنان محكمة الإغلاق "ينبغي أن أحافظ على أعصابي هادئة. ينبغي أن أحافظ على أعصابي هادئة" .

لم يكن رأسه صافيًا تماما، عندما صفقت بوابات القصر مغلقة وراءه. تلخصت كلّ فكرته في البداية في ضرورة أن يضع مسافة بينه وبين جنرال زاروف، وتحقيقا لهذه الغاية هبط على طول المدى، محدثا ضجّة حادة وهو في حالة من الذعر. أصبح بعد ذلك مسيطرا على نفسه، فتوقف، وراح يبحث موقفه بدقة وتأنّ. رأى أنّ فرارا مباشرا عديم الجدوى ؛ لأنّه سيضعه حتما وجها لوجه مع البحر. كان في صورة مع إطار من ماء، ويجب أن تتم عملياته بوضوح ضمن هذا الإطار.

"سوف أترك له أثرا للمتابعة". غمغم رينسفورد متجاوزا ممرا صعبا يقود إلى بريّة غير مطروقة. نفذ سلسلة حركات أنشوطية معقدة، وضاعف محاولاته مرارا وتكرارا، مستعيدا جميع تقاليد صيد الثعالب وجميع حيلها.

أُنهكت ساقاه بمجيء الليل على سلسلة من تلال مشجرة بغزارة، مع سفعات على يديه ووجهه من الفروع. كان يعلم أنّه سيكون من الجنون أن يرتكب أخطاء جسيمة عبر الظلام حتى لو كانت لديه قوّة. كانت حاجته للراحة حتمية، ففكر: "لقد لعبت دور الثعلب، والآن لابد لي من لعب دور القط كما في الحكاية الخرافية". كانت هناك شجرة كبيرة بجذع سميك وفروع متفرقة بالقرب منه، بدأ في التصرّف آخذا في الاعتبار عدم ترك أدنى

علامة. تسلق جذع شجرة متشعّب الأطراف، وقام بمدّ أحد أطرافه العريضة، على غرار البقية، ثم استراح. جلبت له الراحة ثقة جديدة، وتقريبا شعورا بالأمان. قال لنفسه حتى تلك اللحظة لم يستطع صيّاد متحمس كجنرال زاروف أن يقتفي أثره هناك، الشيطان فقط هو من يستطيع أن يتتبع ذلك المسار المعقد خلال الغابة بعد حلول الظلام. لكن ربّما كان الجنرال شيطانا..

زحفت ليلة مخيفة ببطء كما لو على ثعبان جريح، لم يزر النوم رينسفورد فيها، على الرغم من صمت عالم الغابة المشؤوم. قرب الصباح، عندما سطع ضوء رمادي داكن في السماء، وانطلقت صرخات بعض الطيور مركّزة انتباه رينسفورد على ذلك الاتجاه الواردة منه. كان هناك شيء قادم عبر الدغل، قادم ببطء، بحرص من نفس طريق رينسفورد المتعرّج الذي قدم منه. تمدد على أطرافه لأسفل، عبر مساحة من أوراق شجر سميكة مثل نسيج تقريبا، وراح يراقب .. كان ذلك الذي يقترب رجلا.

اكتشف أنّه جنرال زاروف، وقد شقّ طريقه بعينين مثبتتين بأقصى تركيز على الأرض أمامه. توقف، تقريبا تحت الشجرة، وركع على ركبتيه، وتفحّص الأرض. كان رينسفورد مدفوعا كي يقفز لأسفل مثل فهد، لكنه رأى يد الجنرال اليمنى ممسكة بشيء معدني.. مسدس آلي صغير.

هزّ الصيّاد رأسه عدّة مرّات، كما لو كان حائرا. ثم استقام عوده، وأخرج من حقيبته إحدى سجائره السوداء، وسرعان ما وصل دخانها اللاذع الذي يشبه البخور إلى خياشيم رينسفورد.

كتم رينسفورد أنفاسه. غادرت عينا الجنرال الأرض وتحركتا بوصة بوصة إلى أعلى الشجرة. تجمّد رينسفورد هناك، وتوترت كلّ عضلة نابضة. لكن عيني الصياد الحادتين توقفتا قبل أن تصلا إلى الطرف حيث رقد رينسفورد، وانتشرت ابتسامة على وجهه الكئيب. أطلق متعمّدا حلقة دخان في الهواء، ثم أدار ظهره للشجرة، ومشى بعيدا بلامبالاة عائدا على ذات الدرب الذي جاء منه. بدا حفيف وطء حذاء صيده على الأعشاب يخفت ويخفت.

انفجر الهواء المكبوت ساخنا من رئتي رينسفورد. جعله ظنّه الأول يشعر بالخدر والمرض. يمكن للجنرال أن يتبع دربا خلال الغابات بالليل، يمكنه اتباع درب صعب للغاية. لابد أنّ لديه قوى خارقة، لكنها كانت مجرد فرصة لفشل القوقازي في أن يرى طريدته.

ثم كان ظنّ رينسفورد الثاني أكثر بشاعة، أرسل قشعريرة رعب باردة خلال كيانه كله. لماذا ابتسم الجنرال؟ لماذا التفت إلى الوراء؟

لم يرد رينسفورد أن يصدّق أنّ ما قاله عقله كان صحيحا، لكن الحقيقة كانت واضحة وضوح الشمس التي كانت تندفع أشعتها الآن عبر رذاذ الصباح. كان الجنرال يلعب معه! كان الجنرال يدخره لرياضة يوم آخر! كان القوقازي قطا، وكان هو فأرا. عندئذ عرف رينسفورد المعنى الكامل للرعب.

"لن أفقد أعصابي. لن أفعل" .

انزلق هابطا من الشجرة، وانطلق ثانية إلى الغابات. هيّأ نفسه وأجبر آلية ذهنه على العمل. توقف على بعد ثلاث مائة متر من مكان اختبائه الأول

حيث انحنت شجرة ميّتة ضخمة متقلقلة على شجرة أخرى أصغر، حيّة. رمى رينسفورد كيس المواد الغذائية بعيدا، نازعا سكينه من غمده، وبدأ العمل بكل ما يملك من طاقة.

انتهت مهمته أخيرا، فرمى بنفسه لأسفل فيما وراء زند خشب ساقط على بعد مائة قدم. لم يكن عليه أن ينتظر طويلا. كان القط قادما ثانية كي يلعب مع الفأر.

وصل الجنرال زاروف متتبعا الدرب وجاء برفقته، من غير ريب، كلب الأثر. لا يهرب شيء من هذين العينين السوداوين الباحثتين، لا نصل مسحوقًا من العشب، لا غصن مثنيٌّ، لا علامة، بغضّ النظر عن مدى خفوتها وسط الطحالب. هكذا قصد القوقازي إلى شيء سبق أن صنعه رينسفورد قبل أن يراه. لمست قدمه غصنا جاحظا كان هو الزناد. حتى عندما لمسه، استشعر الجنرال الخطر، وقفز إلى الوراء بخفة حركة قرد. لكنه لم يكن سريعا بما فيه الكفاية، فقد ضبطت الشجرة الميّتة بدقة كي ترتاح على الأخرى الحيّة المقطوعة، فسقطت ضاربة الجنرال ضربة سريعة على الكتف أثناء سقوطها، كان يجب أن ينسحق تحتها، لكن نظرا ليقظته ترنح، ولم يسقط، كما لم يسقط مسدسه. وقف هناك يمسّد كتفه المصاب، بينما رينسفورد وقد تمكّن الخوف من قلبه مرّة أخرى، سمع رنين ضحكة الجنرال الساخرة عبر الغابة.

صاح الجنرال: "رينسفورد، إذا كنت تسمع صوتي كما أفترض أن تكون، فدعني أهنئك. ليس هناك كثير من الرجال يعرفون كيف يصنعون

فخا ملاويا لإمساك رجل. لحسن حظي، أنا أيضا، قد اصطدت في ملقا. أنت تثبت أنك مثير للاهتمام، يا سيد رينسفورد، سأمضي الآن لأضمد جرحي. إنه جرح طفيف. لكني سأعود. سأعود" .

عندما ذهب الجنرال لتضميد جرح كتفه المكدوم. شرع رينسفورد في فراره ثانية. كان الآن هروبا يائسا، دون أمل استمرّ عدّة ساعات. جاء الغسق، ثم الظلام، ومازال ضغطه مستمرا. أصبحت الأرض ليّنة تحت خفيه، وازدادت سماكة الغطاء النباتي، فأصبحت أكثر كثافة، بينما عضته الحشرات بوحشية.

ثم، بينما كان يخطو للأمام، غرقت قدمه في طين. حاول أن ينزعها مرّة أخرى، لكن الوحل امتصها بشراهة كما لو كان علكة عملاقة. بذل جهدا عنيفا حتى حرر قدمه. عرف أين هو الآن. إنه مستنقع الموت ورماله المتحركة.

أغلق يديه بإحكام كما لو كانت أعصابه شيئا ملموسا يحاول شخص ما في الظلام أن يمزق قبضتيه. منحته ليونة الأرض فكرة. وقف على بعد اثني عشر قدما أو نحو ذلك من الرمال المتحركة، ومثل قندس ضخم من عصور ما قبل التاريخ، بدأ يحفر.

كان رينسفورد قد سبق أن حفر لنفسه في فرنسا، عندما كان تأخُّر ثانية واحدة قد يعني الموت. كان ذلك بمثابة هواية هادئة مقارنة بما يحفره الآن. ازداد الحفر عمقا، وعندما ارتفع فوق كتفيه، تسلق خارجا، وقام بنزع سيقان غريسات حادة مقطوعة، وزاد من حدتها إلى درجة معينة. زرع هذه

السيقان في قاع الحفرة ورؤوسها مرفوعة لأعلى. ونسج بأصابع طائرة سجادة خامًا من غاب وأغصان، مغطيا بها فتحة الحفرة. ثم جثم مبللا بالعرق، متألما من التعب، وراء جذع شجرة متفحّم بفعل البرق.

عرف أن المطارد قادم، عندما سمع صوت وطء قدمين على الأرض اللينة، وجلب له نسيم الليل عطر سجائر الجنرال. بدا لرينسفورد أنّ الجنرال قادم بسرعة غير عادية سيرا على الأقدام، دون أن يشعر بطول طريقه. لم يستطع رينسفورد أن يرى الجنرال، وهو جاثم هناك، ولا أن يرى الحفرة. كان يعيش سنة في دقيقة. ثم شعر بدفعة للصياح بصوت عال من الفرح ؛ لأنّه سمع صوت فرقعة حاد من كسر وانزياح فروع غطاء الحفرة، سامعا صرخة ألم حادة عندما وضعت السيقان المدببة بصمتها. قفز من مكانه الذي كان يختفي به. ثم تراجع بجبن، وعلى بعد ثلاثة أقدام من الحفرة كان هناك رجل يقف بكشّاف كهربي في يده.

نادى صوت الجنرال: "لقد أحسنت، يا رينسفورد. لقد كلفتني حفرة النمر البورمية واحدا من أفضل كلاب صيدي. ها أنت تنجح في التسجيل مرة أخرى. أعتقد، يا سيد رينسفورد، أنني سأرى ما يمكنك القيام به ضد كل حزمة خبراتي. سأذهب الآن إلى البيت لأرتاح. شكرا لك لأعظم تسلية مسائية" .

عند بزوغ الفجر، كان رينسفورد راقدا قرب المستنقع. استيقظ على صوت جعله يعرف أن لديه أشياء جديدة يتعلمها عن الخوف. كان صوتا بعيدا، خافتا، مرتعشا، لكنه سرعان ما عرفه. كان نباح مجموعة من كلاب الصيد.

عرف رينسفورد أن بمكنته أن يفعل أحد أمرين. أن يمكث حيث هو وينتظر. وكان ذلك انتحارا. كما كان يمكنه الفرار. كان ذلك إرجاء لا مفرّ منه. وقف للحظة هناك، مفكّرا. واتته فكرة فرصة جامحة، فثبت حزامه، ومضى مبتعدا عن المستنقع.

اقترب نباح مجموعة كلاب الصيد. ومازال يقترب أقرب، وأقرب من أيّ وقت مضى. تسلق رينسفورد شجرة على سلسلة تلال. كان هناك مجرى مائي على بعد ربع ميل تقريبا، وأمكنه أن يرى دغلا يتحرك. ركّز بصره، فرأى شخص الجنرال زاروف الهزيل، وبدا تماما أمام رينسفورد شخص آخر ارتفع كتفاه العريضان من خلال سيقان الغاب طويلة القامة، كان هو العملاق إيفان، وقد ظهر مسحوبا إلى الأمام بفعل قوى غير مرئية، فعرف رينسفورد أن إيفان ينبغي أن يكون ممسكا بحزمة قيادة كلاب الصيد.

سيكونان عنده في أيّ لحظة من الآن. عمل عقله بشكل محموم. فكّر في حيلة محلية تعلمها في أوغندا. انزلق إلى أسفل الشجرة. قبض بقوة على شجرة صغيرة مرنة، ربط إليها سكين صيده، جاعلا النصل موجها إلى أسفل الدرب، وبقليل من ألياف العنب البري ربط الشجرة الصغيرة مرّة أخرى. ثم جرى لإنقاذ حياته. رفعت كلاب الصيد أصواتها عندما وصلت إليها رائحة طازجة. عرف الآن رينسفورد كيف يشعر الحيوان وهو يطارد فريسته نابحا.

كان عليه أن يتوقف لالتقاط أنفاسه. توقف نباح الكلاب بشكل مفاجئ، وتوقف قلب رينسفورد أيضا. لابد أنها وصلت إلى نصل السكين.

تسلق رينسفورد شجرة بحماس، وألقى نظرة إلى الوراء. لقد توقف مطاردوه. لكن الأمل الذي كان موجودا في ذهن رينسفورد عندما تسلق تلاشى ، لأنه رأى زاروف في الوادي الضحل مازال واقفا على قدميه. لكن إيفان لم يكن هناك. أيقن أن السكين التي كانت مسحوبة في شجرة لولبية لم تفشل كليّة.

هوى رينسفورد بالكاد إلى الأرض، عندما شدهته صرخة أخرى من ورائه.

راح يلهث، وهو يندفع إلى الأمام "**الأعصاب، الأعصاب، الأعصاب!**". ظهرت أمامه فجوة زرقاء بين الأشجار خالية. لم تقترب كلاب الصيد أبدا بهذا الشكل. أجبر رينسفورد نفسه على اللجوء إلى تلك الفجوة. وصل إليها . كانت هي شاطئ البحر. رأى عبر خليج صغير القصر بحجره الرماديّ قاتم اللون. سمع هسهسة البحر تهدر على بعد عشرين قدما أسفله. تردد رينسفورد. سمع أصوات كلاب الصيد. وسرعان ما قفز بعيدا إلى عرض البحر.

توقف القوقازي عندما وصل بخطوه إلى مكان قرب البحر. توقف بعض دقائق ناظرا إلى الامتداد الأزرق المتداخل مع الأخضر للماء. هزّ كتفيه بلامبالاة، ثم جلس، وتناول جرعة براندي من قارورة فضية، وأشعل سيجارة، ثم همهم بمقطع من "مدام بترفلاي".

كان جنرال زاروف قد تناول في مساء ذلك اليوم عشاء طيّبا في نصب قاعة الطعام العظيمة. وشرب معه زجاجة "بول روجر" ونصف زجاجة "شامبرتين". تسبب حدثان طفيفان في إبقائه متضايقا دون أن تكتمل

متعته. أحدهما كان فكرة أنه سيكون من الصعب تعويض إيفان، والآخر أن طريدته قد هرب منه. طبعا، لم يلعب الأمريكي المباراة.. هكذا فكر الجنرال بينما كان يتذوّق شراب ما بعد العشاء. قرأ في مكتبته بعضا من أعمال ماركوس أوريليوس كي يهدّئ نفسه. صعد في العاشرة إلى غرفة نومه. "كم أنا مبتهج بتعبي"، قال في نفسه وهو يغلق الباب على نفسه بالداخل. كان هناك قليل من ضوء القمر، وقبل أن يضيء النور مضى إلى النافذة، ونظر إلى الفناء بأسفل. أمكنه أن يرى كلاب الصيد العظيمة، فتحدث إليها "حظا أفضل في وقت آخر". ثم أضاء النور.

كان رجل، يقف هناك، مختبئا في ستائر السرير. صرخ الجنرال: "رينسفورد! كيف باسم الإله وصلت إلى هنا؟"

أجاب رينسفورد: "سباحة. وجدت أنّها أسرع بدلا من المشي خلال الغابة".

التقط الجنرال أنفاسه، وابتسم قائلا: "أهنئك. لقد فزت في المباراة".

لم يبتسم رينسفورد "أنا مازلت وحشا في وضع حرج". ثم أضاف بصوت منخفض أجش: "استعد، يا جنرال زاروف".

انحنى الجنرال إحدى انحناءاته العميقة قائلا: "إنّي أرى. رائع! سيكون على أحدنا أن يزوّد كلاب الصيد بوجبة. وسينام الآخر على هذا السرير الممتاز. إنّي على أهبة الاستعداد، يا رينسفورد"..

قرر رينسفورد، أنه لن ينام أبدا على سرير أفضل من هذا.

للفرنسي: آلبير كامو

الضيف

كان المدرّس يراقب الرجلين اللذين يزحفان نحوه. كان أحدهما راكبا ظهر حصان والآخر سائرا على قدميه. لم يكونا قد تطرّقا بعد إلى الارتفاع المفاجئ الذي يؤدي إلى المدرسة التي بنيت على جانب التلّ. كانا يكدحان صاعدين بين الحجارة، محرزين تقدّما بطيئا وسط الثلوج، على طول المدى الشاسع للهضبة المهجورة. يتعثر الحصان ما بين فينة وأخرى. أمكن للمدرس أن يرى الأنفاس الصادرة من خياشيم الحصان، دون أن يسمع أيّ شيء آخر. لاشكّ أنّ أحد الرجلين على الأقل يعرف المنطقة جيدا؛ لأنهما تبعا دربا اختفى منذ عدّة أيام تحت طبقة ثلوج بيضاء قاتمة. قدّر المدرس أنّ تجاوز التّل قد يستلزم منهما نصف ساعة. رجع إلى المدرسة ليحضر سترته.

عبر حجرة الدراسة الخاوية، شديدة البرودة. ظلت أنهار فرنسا الأربعة - السين، لوار، الرون، وجيروندر - مرسومة على السبورة متدفقة نحو مصباتها لمدّة ثلاثة أيام بأربعة ألوان مختلفة من الطباشير. سقط الثلج فجأة في منتصف أكتوبر بعد أربعة أشهر من الجفاف دون أن يتحوّل إلى مطر، فتوقف عن المجيء التلاميذ العشرون الذين يعيشون في قرى متناثرة فوق الهضبة. سيعودون عندما يعتدل الطقس. دفأ "دارو" الآن غرفة واحدة فقط للسكن مجاورة لغرفة الدراسة، تطلّ هي أيضا على الهضبة إلى الشرق.



كانت النافذة تطلّ على الجنوب، مثل الفصل. قامت المدرسة على هذا الجانب على بُعْدِ بضعة كيلومترات من النقطة التي بدأت فيها الهضبة في الانحدار باتجاه الجنوب. يمكن أن ترى في الطقس الصافي كتلة أرجوانية لامتداد الجبل هناك، حيث تنفتح فجوة على الصحراء.

بعد أن تدفأ "دارو" بعض الشيء، رجع إلى النافذة التي شاهد منها الرجلين أول مرّة. لم يعودا مرئيين. لابد أنهما بالتالي تصدّيا للمرتفع. لم تكن السماء شديدة الظلمة لأنّ الثلوج توقفت عن السقوط خلال الليل. افتتح الصباح بضوء داكن نادرا ما يصبح أكثر إشراقا أثناء ارتفاع سقف السحب. بدا اليوم في الثانية بعد الظهر كما لو أنّه يبدأ الآن فقط. لكن مازال اليوم أفضل من تلك الأيام الثلاثة التي هبطت فيها الثلوج بكثافة دون انقطاع وسط الظلام مع هبّات رياح قليلة هزّت الباب المزدوج لغرفة الصفّ، فأمضى "دارو" ساعات طويلة في غرفته، لم يكن يغادرها إلا للذهاب إلى السقيفة لتغذية الدجاج أو الحصول على بعض الفحم. ولحسن الحظ، أحضرت شاحنة إمداداته من "تادجيد"، أقرب قرية، قبل يومين من العاصفة الثلجية. ستعود خلال ثمان وأربعين ساعة.

كان لديه، إلى جانب ذلك، ما يكفي لمقاومة أيّ حصار بعد أن شونت في الغرفة أكياس قمح تركتها الإدارة كمخزون لتوزيعها على أسر التلاميذ التي عانت من الجفاف. كانوا جميعا، في الواقع، ضحايا ؛ لأنّهم كانوا جميعا فقراء. ربّما يوزع "دارو" كلّ يوم حصصا تموينية على الأطفال. كم افتقدوها، كما عرف، خلال تلك الأيام السيئة. ربّما يأتي بعض الآباء بعد ظهر اليوم فيزوّدهم بالحبوب. إنّها فقط مجرّد مسألة المحافظة على الحبوب

حتى موسم الحصاد القادم. وقد انتهى الآن أسوأ ما في الأمر، حيث تصل سفن محملة بالقمح من فرنسا. لكن قد يكون من الصعب نسيان هذا الفقر، هذا الجيش من أشباح مرتدية مزقا متجوّلة في ضوء الشمس، وقد تحوّلت الهضبة إلى جمرة محترقة شهرا وراء شهر، وذبلت الأرض شيئا فشيئا، محترقة حرفيا، بعد أن تفجّر كلّ حجر متحوّلا إلى غبار تحت الأقدام. نفقت الأغنام بالآلاف، بل ومات عدد كبير من الرجال أيضا، هنا وهناك، دون أن يعرف أحد.

كان "دارو"، على النقيض من هذا الفقر، فقد عاش كراهب تقريبا في مدرسته البعيدة هذه، راضيا بالقليل الذي معه، مع الحياة الصعبة، شاعرا أنه سيّد مع جدرانه البيضاء المغسولة، أريكته الضيّقة، رفوفه غير المدهونة، بئره، وإمداداته الأسبوعية من ماء وغذاء. وفجأة جاء هذا الثلج دون إنذار، دون بشير بالمطر. هذا هو الأسلوب الذي كانت عليه قسوة الحياة في هذه المنطقة، حتى بدون الرجال الذين لم يساعدوا على إصلاح الأمور. لكن "دارو" ولد هنا، فكان يشعر بأيّ مكان آخر كمنفى.

صعد إلى الشرفة المواجهة للمدرسة. وصل الرجلان الآن إلى منتصف الطريق إلى المنحدر. تعرّف في الفارس على "بالدوتشي"، الذي يعتبر من مواطني كورسيكا، جزيرة فرنسية في شمال "ساردينيا"، الدركي العجوز الذي عرفه منذ زمن طويل، وقد أمسك بحبل في نهايته عربي كان يمشي خلفه بيدين مقيدتين ورأس منكّس. لوّح الدركي محييا "دارو" الذي لم يردّ تحيته وهو تائه في تأمّل العربي الذي ارتدى "جلابية" زرقاء باهتة، لابسا صندلا في قدمين مشمولين بجوربين من صوف خام ثقيل، وتعلو رأسه

"غوترة" ضيّقة قصيرة. كانا يقتربان، وهما يتقدمان ببطء. يتراجع "بالدوتشي" بحصانه قليلا حتى لا يؤذي العربي.

صاح "بالدوتشي" من مقربة:

- استغرقنا ساعة واحدة للقيام برحلة ثلاثة كيلومترات من "العمور"!

لم يجب "دارو". راح يشاهد صعود العربي بجرمه المربع وهيئته القصيرة مرتديا سترته. لم يرفع العربي رأسه مرّة واحدة. قال "دارو" عندما صعدا إلى الشرفة:

- مرحبا..

ثم استطرد: .

- ادخلا إلى الدفء.

ترجّل "بالدوتشي" عن حصانه متألما دون أن يدع الحبل من يده. ابتسم للمدرّس من تحت شاربه المنتصب. جعلته عيناه المظلمتان الصغيرتان الموضوعتان عميقا تحت جبهته المدبوغة، وفمه المحاط بالتجاعيد، يبدو منتبها وحاضرا. تناول "دارو" اللجام، وقاد الحصان إلى السقيفة، ثم رجع إلى الرجلين، اللذين كانا ينتظرانه الآن في المدرسة. قادهما إلى غرفته، قائلا:

- سأدفئ غرفة الدراسة، سنكون هناك أكثر راحة.

عندما دخل إلى الغرفة ثانية، رأى "بالدوتشي" جالسا على الأريكة. كان قد فكّ حبل قيده إلى العربي الذي انحشر قرب الموقد. مازالت يداه مكبلتين، وقد تراجعت "غوترته" على رأسه، وهو يتطلع إلى النافذة. لاحظ

"دارو" في البداية أنّه يتمتع بشفتين غليظتين، سمينتين، ضخمتين، زنجيتي اللون تقريبا، ومع ذلك كان أنفه منتصبا، وعيناه سوداوين يفيضان بالحمى. كشفت "غوترته" عن جبهة عريضة، تحت جلد لوّحه الطقس فغدا بالأحرى بلا لون نتيجة البرد، حتى أصبح للوجه كله نظرة قلق متمرّدة صدمت "دارو"، خاصة عندما أدار وجهه ناظرا إليه مباشرة في العينين. قال المدرس:

- اذهبا إلى الغرفة الأخرى، سأعد لكما شايا بالنعناع.

- شكرا..

ردّ "بالدوتشي"، ثم استطرد:

- يا له من عمل! كم أتوق إلى التقاعد.

ثم خاطب سجينه بالعربية:

- هيا، أنت .

نهض العربي ببطء، عاقدا معصميه أمامه ماضيا إلى غرفة الدراسة.

جلب "دارو" كرسيا مع الشاي، لكن "بالدوتشي" كان قد اقتعد أقرب مكتب من مكاتب التلاميذ، وقرفص العربي أمام منصّة المدرس التي تواجه الموقد منتصبة بين المكتب والنافذة. تردد "دارو"، وهو يقدّم كوب الشاي إلى السجين لمرأى يديه مكبلتين، فقال:

- ربما يكون من الأفضل أن تفكّ يديه .

- بالتأكيد، لقد كان ذلك من أجل الرحلة.

قال "بالدوتشي" بادئا بالوصول إلى قدميه، لكن "دارو" ركع مباشرة إلى جانب العربي واضعا الكوب على الأرض. راقبه العربي بعينيه المحمرتين دون أن يقول شيئا. وما إن تحررت يداه حتى فرك معصميه المتورمين ببعضهما البعض، وتناول كوب الشاي، وراح يرتشف السائل الساخن في رشفات صغيرة سريعة.

- حسنا .

قال "دارو"، ثم استطرد:

- إلى أين تمضي؟

سحب "بالدوتشي" شاربه من الشاي قائلا:

- هنا، يا ابني..

- وأين ستقضي الليل؟

- سأعود إلى "العمور". وستسلم أنت هذا الزميل إلى "طنجة". إنهم ينتظرونه في مقرّ الشرطة.

نظر "بالدوتشي" إلى "دارو" بابتسامة ودّية صغيرة، فتساءل المدرس:

- ما هذه الحكاية؟ هل تجبرني على أمر معيّن؟

- لا، يا ابني. بل تلك هي الأوامر .

- الأوامر؟ أنا لست...،

تردد "دارو"، فلم يكن يريد أن يؤذي مشاعر الكورسيكي. أخيرا، قال:

- أعني أن هذه ليست وظيفتي.

- ماذا؟ ما معنى ذلك؟ يؤدي الناس كلّ الأعمال في زمن الحرب.

- إذن، سأنتظر إعلان الحرب!

قال "بالدوتشي":

- حسنا، لكن الأوامر موجودة، وهي تخصّك أيضا. يبدو أنّ الأمور تختمر، وهناك حديث عن ثورة قادمة. ونحن في حالة تعبئة، بشكل ما.

مازالت لـ"دارو" نظرته العنيدة.

قال "بالدوتشي":

- انظر، يا ابني. إنني أحبّك؛ لذلك ينبغي أن تفهم. لا يوجد هناك في تلك الدائرة الصغيرة في الـ"عمور" سوى عشرة منّا للقيام بدوريات في جميع أنحاء الأراضي، وهو ما يحتم عليّ العودة عاجلا. لقد أخبروني أن أسلم هذا الرجل إليك، وأعود فورا دون تأخير. لم يكن ممكنا إبقاؤه هناك. بدأت قريته تثير القلاقل، فهم يريدون استعادته. ينبغي أن تأخذه إلى "طنجة" غدا قبل أن ينتهي النهار. لا ينبغي لعشرين كيلومترا أن ترعب شخصا قويّا مثلك. بعد ذلك، ينتهي كلّ شيء وتعود إلى تلاميذك وإلى حياتك المريحة.

كان يمكن سماع صهيل الحصان من وراء الجدار، وهو يخدش الأرض. استمرّ "دارو" ينظر إلى خارج النافذة. بدأ الطقس يصفو بالتأكيد، وراح الضوء يغمر الهضبة الثلجية. هيمنت الشمس مرّة أخرى حين ذابت كلّ الثلوج، لتحرق الحقول الحجرية. ومع ذلك، فإنّ السماء غير المتغيّرة قد سلطت ضوءها الجاف على الامتداد المتفرّد حيث لا شيء له أيّة صلة بالإنسان.

قال "دارو" دائرا في المكان حول "بالدوتشي":

- رغم كلّ شيء، ماذا فعل؟

وقبل أن يفتح الدركي فمه، سأله:

- هل يتحدّث الفرنسية؟

- لا، ولا مجرّد كلمة. لقد ظللنا نبحث عنه لمدّة شهر، لكنهم كانوا يخفونه. لقد قتل ابن عمه.

- هل هو ضدنا؟

- أنا لا أعتقد ذلك. لكن لن يمكنك أبدا أن تكون متأكدا.

- لماذا قتل؟

- مشاجرة عائلية، أعتقد أن أحدهما أخذ حبوب الآخر، على ما يبدو. الأمور كلها ليست واضحة. باختصار، قتل ابن عمه بمنجل. أنت تعرف، مثل نحر خروف.

أشار "بالدوتشي" راسما شفرة عبر حنجرته، وهو ما جذب انتباه العربي، الذي راقبه بنوع من القلق. شعر "دارو" بغضب مفاجئ من تلك المعاملة الخشنة، ضد كلّ الرجال الحقودين الفاسدين، بكراهيتهم التي لا تكلّ، بشهوتهم الدموية.

مارت الغلاية على الموقد. قدم لـ"بالدوتشي" مترددا شايا مرّة أخرى، ثم خدم بتقديمه إلى العربي ثانية، الذي شرب هذه المرّة بشوق رافعا ذراعيه لأعلى جاعلا الجلابية تسقط مفتوحة فرأى المدرس عضلات صدره.

قال بالدوتشي:

- شكرا، يا ابني. سأنطلق، الآن.

نهض متوجّها نحو العربي، مخرجا حبلا صغيرا من جيبه. سأل "دارو" بجفاء:

- ماذا ستفعل؟

ارتبك "بالدوتشي". أظهر له الحبل.

- لا تهتم.

تردد الدركي العجوز، وهو يقول:

- الأمر متروك لك. بطبيعة الحال، أنت مسلح؟

- لديّ بندقيتي .

- أين؟

- في صندوق الثياب.

- - ينبغي أن تكون قرب فراشك .

- - لماذا؟ ليس لديّ ما أخاف منه .

- - أنت مجنون، يا ابني. إذا كانت هناك انتفاضة، فلا أحد في مأمن، نحن جميعا في نفس القارب.

- - سأدافع عن نفسي، سيكون لديّ وقت لرؤيتهم قادمين.

بدأ "بالدوتشي" بالضحك، وفجأة غطى شاربه أسنانه البيضاء:

- سيكون لديك وقت؟ حسنا، ذلك هو فقط ما كنت أقوله. ستكون دائما شخصا غريب الأطوار قليلا. ولهذا السبب أحبّك، فابني من هذا القبيل.

أخرج في نفس الوقت مسدسه، ووضعه على المكتب، قائلا:

- احتفظ به، لن أحتاج سلاحين من هنا إلى "العمور" .

سطع المسدس أمام طلاء المائدة الأسود. حين تحوّل الدركي باتجاهه لفحت المدرس رائحة جلد ولحم خيل. قال "دارو" فجأة:

- أنصت، يا "بالدوتشي". إنّ كلّ هذه الأشياء تثير اشمئزازي، وأولها زميلك هنا. لكني لن أسلمه. سأحارب، نعم، إذا توجّب الأمر. لكني لن أفعل هذا.

وقف الدركي العجوز أمامه، ناظرا إليه بحدّة، ثم قال ببطء:

- أنت أحمق. أنا لا أحبّ ذلك أيضا. أنت لم تعتد على وضع حبل على رجل بعد مضي هذه السنوات من عمرك، بل تكون خجلا أيضا. لكن لن يمكنك أن تدعهم يمضون في طريقهم.

قال "دارو" ثانية:

- أنا لن أسلمه.

- هذا أمر، يا ابني، وأنا أكرره .

- هذا حسن. كرر لهم ما قلته لك: أنا لن أسلمه.

بذل بالدوتشي جهدا مرئيا للتفكير، ناظرا إلى العربي ثم إلى "دارو". وأخيرا قرر:

- لا، لن أقول لهم أيّ شيء. إذا أردت تركنا، فامض قدما. فأنا لن أمنعك. إنّ لديّ أمرا بتسليم السجين، وأنا أقوم بذلك. والآن، هل توقع فقط على هذه الورقة من أجلي؟

- ليست هناك حاجة لذلك. لن أنكر أنك تركته معي.

- لا تناورني. أنا أعلم أنك ستقول الحقيقة، فأنت من هنا، وأنت رجل. لكن يجب عليك التوقيع. تلك هي القاعدة.

فتح "دارو" الدرج. أخرج زجاجة صغيرة من حبر أرجواني، وريشة قلم خشبية حمراء ماركة "رقيب أول" تستخدم لصنع نماذج من الخط، ووقع. طوى الدركي الورقة بعناية ووضعها في محفظته. ثم تحرّك باتجاه الباب. قال "دارو":

- سأراك ثانية.

ردّ "بالدوتشي":

- لا. لا فائدة من أن تكون مهذبا. لقد أهنتني.

تطلع إلى العربي الساكن بلا حراك في نفس المكان، وهو يتشمم بأنفه بشكل مشاكس، واستدار مبتعدا باتجاه الباب. قائلا:

- مع السلامة، يا ابني.

انغلق الباب وراءه. ظهر "بالدوتشي" فجأة خارج النافذة، ثم اختفى. كان صوت خطواته مكتوما بسبب الثلوج. تحرّك حصانه حركة ضئيلة على الجانب الآخر من الحائط، ورفرفت عدّة دجاجات في خوف. عاد "بالدوتشي" إلى الظهور ثانية في وقت لاحق خارج النافذة، وهو يقود الحصان من لجامه. سار نحو المرتفع الصغير دون أن يدور في المكان، واختفى عن الأنظار يتبعه الحصان. أمكن سماع دويّ حجر كبير وهو يسقط لأسفل. رجع "دارو" إلى السجين الذي دون أن يتحرّك من مكانه، لم يرفع عينيه عنه أبدا.

- انتظر.

قال المدرّس باللغة العربية، ومضى نحو غرفة النوم. وبينما كان ماضيا عبر الباب، ومضت فكرة أخرى في ذهنه، فذهب إلى المكتب، وتناول المسدس، ووضعه في جيبه، ثم ذهب إلى حجرته، دون أن ينظر إلى الوراء.

رقد "دارو" على الأريكة لبعض الوقت مستمتعا بالسكون، وهو يشاهد ابتعاد السماء تدريجيا. إنّه هو، هذا الصمت الذي بدا مؤلما بالنسبة إليه خلال أيامه الأولى هنا، بعد الحرب. كان قد طلب وظيفة في بلدة صغيرة، عند قاعدة سفوح التلال التي تفصل الهضبة العلوية عن الصحراء. هناك جدران صخرية، خضراء وسوداء إلى الشمال، قرنفلية ذات لون أرجواني شاحب إلى

الجنوب، راسمة حدود الصيف الأزلية. عيّن في وظيفة أبعد إلى الشمال، على الهضبة نفسها. كانت الوحدة والصمت في البداية صعبين عليه في تلك الأراضي البور المأهولة فقط بالحجارة. فكّر في الزراعة، حفر الأرض في بعض الأحيان، لكن حفره كشف فقط عن نوع معيّن من الحجر الجيّد للبناء. كان الحرث الوحيد، هنا، هو حصاد للصخور. واكتشف أنّ كشط طبقة رقيقة من التربة المتراكمة في التجويفات، يؤدي من جهة أخرى إلى إثراء حدائق قرية من نوع رديء. هذا ما كان عليه الأمر: غطت صخور عارية ثلاثة أرباع المنطقة. نشأت مدن، ازدهرت، ثم اختفت. وجاء رجال، أحبّ أحدهم الآخر، أو حاربوا بمرارة، ثم ماتوا. لم يهتمّ أحد بهذه الصحراء، ولا حتى ضيفه. وحتى الآن، خارج هذه الصحراء، لا يمكن له أو لهم، كما يعرف "دارو"، أن يعيش أو يعيشوا حقا.

حين نهض، لم يسمع أيّ ضوضاء من ناحية غرفة الدراسة. كان متعجبا من فرح لم يكتمل استمدّه من مجرّد التفكير في أن العربي قد فرّ، وأنّه سيكون وحده مسئولا عن أيّ قرار يتخذ. لكنه رأى السجين هناك، ممددا بين الموقد وطاولة الدرس، بعينين مفتوحتين، محدقتين إلى السقف. لاحظ أنّ شفتيه الغليظتين منحتاه نظرة عابسة في هذا الوضع بشكل خاص. قال "دارو":

- تعال.

نهض العربي وتبعه. أشار المدرّس في غرفة النوم إلى كرسي قرب المائدة تحت النافذة. جلس العربي دون أن يبعد عينيه عن "دارو".

- هل أنت جائع؟

- نعم.

قال السجين.

أعدّ "دارو" المائدة لفردين. تناولَ دقيقا وزيتا، مشكلا كعكة في مقلاة القلي، وأشعل الموقد الذي يعمل بغاز معبأ. أثناء طهي الكعكة، خرج إلى الحظيرة لإحضار جبن وبيض وتمر ولبن دسم. حين نضجت الكعكة، وضعها على عتبة النافذة لتبرد، سخن بعض حليب دسم بعد أن خففه بالماء، وضرب البيض على شكل أومليت. أثناء إحدى حركاته لمس المسدس العالق بجيبه الأيمن. أنزل الإناء إلى أسفل، وذهب إلى غرفة الدراسة، ووضع المسدس في درج مكتبه. عندما رجع إلى الحجرة كان الليل يسدل أستاره. أضاء النور، وقدّم الطعام للعربي، قائلا:

- تفضّل .

تناول العربي قطعة من الكعكة، رفعها إلى فمه بشغف، ثم توقف قليلا متسائلا:

- وأنت؟

- بعدك، سآكل أيضا.

انفتحت الشفتان الغليظتان قليلا. تردد العربي، ثم أقبل على الكعكة بإصرار.

حين انتهت الوجبة نظر العربي إلى المدرس متسائلا:

- هل أنت القاضي؟

- لا، أنا ببساطة أحافظ عليك حتى الغد .

- لماذا تأكل معي؟

- لأنّي جائع.

سقط العربي في لجّة الصمت. نهض "دارو" وغادر الحجرة. أحضر سريرا مطويّا من السقيفة، ونصبه بين المائدة والموقد، متعامدا مع سريره الخاص. انتصبت هناك حقيبة كبيرة في ركن بمثابة رفّ للورق، تناول منها بطانيتين ورتبهما على السرير المنصوب. ثم وقف شاعرا بعدم جدوى، وجلس على فراشه. لم يعد هناك أيّ شيء آخر ليعمل أو يعدّ. عليه أن ينظر إلى الرجل في محاولة لتخيّل وجهه محتقنا بالغضب. لم يستطع أن يفعل ذلك. لم ير شيئا سوى عينين ساطعتين، وفم بهيمي:

- لماذا قتلته؟

تساءل بصوت فيه لهجة عدائية أدهشته. نظر العربي بعيدا:

- كان قد ركض بعيدا، فجريت وراءه.

رفع عينيه ثانية إلى "دارو". كانتا مليئتين بنوع من استجواب حزين:

- والآن، ماذا سيفعلون بي؟

- هل أنت خائف؟

تصلب محوّلا عينيه إلى بعيد.

- هل أنت آسف؟

حدّق العربي إليه فاغر الفم. من الواضح أنه لم يفهم. كان ضيق "دارو" يتصاعد. شعر في نفس الوقت بحرج ووعي ذاتي بذلك الجسد الكبير الكائن بين السريرين. قال بنفاد صبر:

- استلق هناك، ذلك سريرك.

لم يتحرّك العربي. ناداه "دارو":

- خبرني!

نظر إليه المدرس.

- هل سيعود الدركي غدا؟

- لا أعرف.

- هل ستأتي معنا؟

- لا أعرف. لماذا؟

نهض العربي، وفرد قمة البطانيتين على جسمه متجها بقدميه نحو النافذة. سطع ضوء مصباح الكهرباء مباشرة في عينيه، فأغلقهما فورا. كرر "دارو" سؤاله وهو واقف إلى جانب السرير:

- لماذا؟

فتح العربي عينيه تحت الضوء المبهر، ونظر إليه محاولا ألا تومض عيناه، وهو يقول:

- تعال معنا.

لم يستطع "دارو" النوم حتى منتصف الليل. كان قد مضى إلى الفراش بعد أن تعرّى تماما، فقد كان ينام عادة عاريا. لكنه تردد عندما تيقن أنّه لا يرتدي شيئا. شعر بحرج ، وغزاه إغراء بأن يرتدي ملابسه مرّة أخرى.

لكنه هزّ كتفيه باستهانة، فرغم كلّ شيء لم يعد بعد طفلا، وإذا اقتضى الأمر سيكسر المعتدي إلى اثنين. كان يمكنه أن يراقب العربي من سريره مستلقيًا على ظهره دون حركة، مغلق العينين تحت الضوء المبهر.

حين أطفأ "دارو" النور، بدا أنّ الظلام قد حلّ فجأة. ورجع الليل في النافذة تدريجيا إلى الحياة ثانية، حيث تألقت هناك برقة سماء بلا نجوم. وسرعان ما استلقى المدرس بجسمه على السرير. مازال العربي ساكنًا ، لكن بدت عيناه مفتوحتين. هبّت ريح خفيفة حول المدرسة. ربّما تبعد السحب فتنكشف الخطيئة ثانية.

زادت الرياح أثناء الليل، رفرف الدجاج قليلا ثم سكن. انقلب العربي إلى جانبه، وظهره إلى "دارو" الذي اعتقد أنّه سمعه يئن. ثم أنصت إلى تنفس ضيفه، وهو يزداد ثقلا وانتظاما. أنصت إلى ذلك التنفس الشديد القرب منه، مفكّرا دون أن يتمكن من الاستغراق في النوم. سبق أن نام في هذه الغرفة وحده لمدة عام، لذلك يزعجه هذا الوجود. لكنه يزعجه أيضا من خلال فرض نوع من أخوّة يعرفها جيدا، لكنه يرفض أن يقبلها في الظروف الراهنة. إنّ الرجال الذي يتقاسمون نفس الغرف، مساجين أو جنودًا، يطوّرون تحالفا غريبا كما لو أنّه بمجرّد أن يخلعوا دروعهم وملابسهم يتحلون بروح ودّية كلّ مساء تعلو فوق خلافاتهم في مجتمع الحلم والتعب القديم. لكن "دارو" نبّه نفسه بأنه لا يحبّ مثل هذه التأملات، وأنه لابد أن ينام أساسا.

ومع ذلك، عندما تحرّك العربي قليلا في وقت لاحق، كان المدرّس مازال مستيقظًا. عندما تحرّك العربي حركة أخرى، تأهّب حذرا. رفع العربي نفسه

ببطء على ذراعيه تقريبا كمن يمشي مسرنما. جلس منتصبا في الفراش، انتظر دون حركة ودون أن يدير رأسه ناحية "دارو"، كما لو كان ينصت باهتمام. لم يتحرّك "دارو"، بل حدث أن تذكّر للتو أنّ المسدس مازال في درج مكتبه. من الأفضل أن يتصرّف فورا. لكنه تابع مراقبة السجين، الذي مع حركة انزلاق وضع قدميه على الأرض، منتظرا ثانية، ثم بدأ يقف ببطء. أوشك "دارو" أن ينادي العربي، عندما بدأ يمشي بطريقة طبيعية تماما لكنها صامتة للغاية. كان يتوجّه إلى الباب في نهاية الغرفة الذي يفتح على السقيفة. رفع المزلاج بحذر، وخرج دافعا الباب وراءه دون أن يغلقه. لم يتحرّك "دارو". فكّر بشكل مجرّد "أنه يهرب"، ثم "بئس المصير!". أنصت باهتمام. لم يرفرف الدجاج. لابد أنّ الضيف على الهضبة الآن. وصله صوت خافت لانسياب ماء، لم يعرف ماذا كان يحدث، حتى وقف العربي ثانية في إطار الباب، ثم أغلقه بحرص، ورجع ثانية إلى الفراش دون صوت. عندئذ أدار "دارو" ظهره إليه، وسقط في النوم. بدا في وقت لاحق، أنه سمع من أعماق نومه، خطوات ماكرة حول المدرسة، فكرر لنفسه "إني أحلم! إني أحلم!"، واستغرق في النوم.

كانت السماء صافية عندما استيقظ. أدخلت النافذة المفتوحة هواء باردا نقيّا. كان العربي نائما، محدّبا جسمه الآن تحت البطانيتين، مفتوح الفم، مسترخيا تماما. لكن حين هزه "دارو"، حدّق إليه بخوف بعينين متوحشتين، كما لو أنّه لم يسبق له أبدا أن رآه، فجعل هذا التعبير الخائف المدرّس يتراجع قائلا:

- لا تخف. إنه أنا. ينبغي أن تأكل.

أومأ العربي برأسه موافقا. رجع الهدوء إلى وجهه، لكن التعبير كان فاترا خاويا.

أُعِدت القهوة. تناولاها جالسين معا على السرير القابل للطيّ، وهما يمضغان قطعا من الكعك. ثم قاد "دارو" العربي إلى السقيفة، حيث أظهر له صنبور الاغتسال. ثم رجع إلى الغرفة. طوى البطانيتين والسرير، ورتب سريره، ونظم الغرفة. ومضى عبر غرفة الدراسة إلى الشرفة. كانت الشمس قد سطعت بالفعل في السماء الزرقاء. غمر ضوء ناعم متألق الهضبة المهجورة. كانت الثلوج تذوب على الحافة في نقاط معيّنة، وأوشكت الحجارة على الظهور. نظر المدرّس مائلا ببصره عن حافة الهضبة إلى الامتداد المهجور. فكّر في "بالدوتشي". لقد آذاه لأنّه طرده بطريقة كما لو أنه لم يكن يريد أن يرتبط به. مازال يمكنه سماع وداع رجل الدرك، ودون أن يعرف لماذا، شعر بضعف وفراغ غريبين. سعل السجين في تلك اللحظة من الجانب الآخر من المدرسة. أنصت إليه "دارو" على الرغم من نفسه تقريبا، ثم رمى غاضبا حجرا صفّر في الهواء قبل أن يغوص في الثلوج. أثارته جريمة الرجل الغبية، لكن تسليمه يتنافى مع الشرف. إنّ مجرّد التفكير في ذلك جعله يشعر بوخز من ندم مع نوع من ذلّ. لعن في آن واحد، أبناء شعبه الذين أرسلوا إليه هذا العربي، وذلك العربي الذي تجرّأ أيضا على القتل دون أن يتمكن من الهرب. نهض "دارو"، سار في دائرة على الشرفة، انتظر بلا حراك، ثم رجع إلى المدرسة.

مال العربي على أرضية السقيفة الأسمنتية. كان يغسل أسنانه بأصبعين. نظر "دارو" إليه، وقال:

- تعال.

رجع أمام السجين مباشرة إلى الغرفة. ارتدى سترة صيد فوق سترته، وارتدى حذاء مشي. انتظر واقفا حتى لفّ العربي غوترته ولبس صندله. ثم ذهبا معا إلى الفصل حيث أشار المدرس إلى المخرج قائلا:

- امض قدما.

لم يتزحزح العربي، فقال "دارو":

- إنّي قادم.

خرج العربي، رجع "دارو" إلى الغرفة، وأعدّ طردا من قطع خبز، وبلح، وسكر. تردد في الفصل لوهلة أمام مكتبه قبل الخروج، ثم عبر العتبة وأغلق الباب، قائلا:

- ذلك هو الطريق.

بدأ المسير نحو الشرق يتبعه السجين. وعلى بعد مسافة قصيرة من المدرسة، اعتقد "دارو" أنّه سمع صوتا خفيفا وراءه. أعاد تقصّي آثار خطواته، وتفحّص محيط المنزل. لم يكن هناك أيّ شخص. راقبه العربي دون أن يبدو عليه الفهم. قال "دارو":

- تعال.

سارا لمدّة ساعة، ثم استراحا بجوار ذروة حادة من حجر جيري. ذابت الثلوج أسرع فأسرع، ورروت الشمس البرك فورا، واهتزت فورا منطقة الهضبة التي جفت مثل الهواء نفسه. وحين استأنفا المشي رنّت الأرض تحت أقدامهما. وشغل طائر الفضاء أمامهما ما بين وقت وآخر بصيحة مرح. تنفس "دارو" بعمق هواء الصباح الجديد المنعش. شعر بنوع من نشوة أمام

الامتداد الواسع المألوف، الذي أصبح تقريبا أصفر اللون كليّة تحت قبّة السماء الزرقاء. سارا ساعة أخرى، هابطين نحو الجنوب. وصلا إلى مستوى مرتفع تكوّن من صخور متفتتة. ومن هناك انحدرت الهضبة لأسفل باتجاه الشرق نحو سهل منخفض كانت فيه هناك عدّة أشجار طويلة ضعيفة إلى الجنوب باتجاه صخور بارزة أعطت المشهد نظرة فوضوية.

استطلع "دارو" الاتجاهين. لم يكن هناك من شيء سوى السماء عند الأفق. لا يمكن رؤية أيّ بشر على طول المدى. التفت إلى العربي، الذي كان ينظر إليه بوضوح. قدّم دارو الطرد إليه، قائلا:

- **خذه. يوجد فيه بلح، خبز، وسكر. يمكنك الصمود لمدة يومين. وها هي ألف فرانك أيضا.**

تناول العربي الطرد والمال، لكنه أبقى يديه على مستوى الصدر كما لو أنه لا يعرف ما ينبغي القيام به مع ما يجري منحه إليه. قال المدرس وهو يشير إلى اتجاه الشرق:

- **والآن، انظر. هناك، هو الطريق إلى "طنجة". سيتحتم عليك المشي مدّة ساعتين. ستجد في "طنجة" الإدارة والشرطة. إنهم ينتظرونك.**

نظر العربي باتجاه الشرق، وهو مازال يمسك الطرد والمال أمام صدره. أمسكه "دارو" من كوعه وأداره بخشونة نحو الجنوب. وعند سفح الارتفاع الذي وقفا عنده أمكن أن يريا مدقا باهتا:

- **هذا درب يمضي عبر الهضبة. ستجد مراعي وبدوًا، خلال تمشية نهار من هنا، سيستضيفونك ويقدّمون لك مأوى طبقا لعاداتهم.**

تحوّل العربي الآن باتجاه "دارو"، وبدا نوع من الذعر على مظهره. قال:

- أنصت إليّ.

هزّ "دارو" رأسه:

- لا، كن هادئا. الآن، سأرحل عنك.

أدار له ظهره. أخذ خطوتين واسعتين باتجاه المدرسة، ناظرا بتردد إلى العربي الساكن، وبدأ في الابتعاد ثانية. لم يسمع شيئا لعدّة دقائق، لكن خطواته دوّت على الأرض الباردة، ولم يحوّل رأسه. وبعد فترة من وقت لاحق، التفت حوله. مازال العربي على حافة التل، ذراعاه معلقتان الآن، وكان ينظر إلى المدرس. شعر "دارو" بغصّة ترتفع في حلقه. لكنه سبّ بنفاد صبر، ولوّح بغموض، واستأنف الابتعاد مرّة أخرى. توقف ثانية بعد أن قطع مسافة فعلا، ونظر. لم يعد هناك أيّ شخص على التلّ.

تردد "دارو". كانت الشمس عالية إلى حدّ ما في السماء، بادئة صبّ نارها على رأسه. تتبع المدرس آثار خطواته الأولى غير متيقن في البداية ثم بيقين بعد ذلك. حين وصل إلى التل الصغير، كان قد استحمّ في العرق. تسلقه بأسرع ما يستطيع، ثم توقف، لاهث الأنفاس على القمة. انتصبت حقول الصخور إلى الجنوب بحدّة تحت السماء الزرقاء، وكانت ترتفع هناك فعلا حرارة بخارية على السهل باتجاه الشرق. وسط هذا الضباب الطفيف دفع "دارو" بقلب مثقل العربي إلى السير ببطء على الطريق المؤدي إلى السجن.

في وقت لاحق، وقف "دارو" أمام حجرة الدراسة. كان المدرّس يشاهد حمام الضوء الساطع على كلّ سطح الهضبة الذي كان يراه بصعوبة. وراءه على السبورة بين أنهار فرنسا المتعرّجة، رأى عبارة مكتوبة بالطباشير بشكل أخرق، قرأها فورا: **"لقد سلمت أخانا. سوف تدفع ثمن ذلك"**.

نظر "دارو" إلى السماء، والهضبة، وإلى ماوراء الأراضي الخفيّة الممتدة على طول الطريق إلى البحر. كم كان وحيدا، وسط هذا المشهد الواسع الذي أحبّه كثيرا.

للإنجليزي: جون جولزوورثي

شجرة سفرجل يابانية

حين فتح السيد "نيلسون"، المعروف جيدا في المدينة، نافذة غرفة ارتداء وخلع ملابسه التي تطلّ على "كاميدون هيل. لندن"، استشعر إحساسا غريبا حلوا في الجزء الخلفي من حلقه، شعور بفراغ تحت ضلع صدره الخامس. لاحظ وهو يثبت النافذة للوراء أنّ هناك شجرة صغيرة في ساحة الحدائق قد أينعت زهورا، وأن مقياس الحرارة قد بلغ ستينًا، ففكر "ها قد هلّ الربيع أخيرا، إنّه صباح رائع!" .

التقط مرآة زجاجية مدعومة بإطار عاجي ممعنًا النظر إلى وجهه. عكست المرآة مظهرا مطمئنا لصحّة جيّدة، وجنتين مكتنزتين نابضتين بالحياة، مع شارب بنّي أنيق، وعينين مستديرتين صريحتين رماديتين بوضوح. هبط إلى الطابق الأسفل مرتديا سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين.

كانت جريدة الصباح قد وضعت على البوفيه في حجرة الطعام، وما إن أمسك بها حتى أدرك مرّة أخرى ذلك الشعور الغريب. ذهب متعمّدا بشكل ما إلى المخرج الفرنسي إلى الحدائق، وهبط سلمات حديدية منطلقا إلى هواء طلق. دقت ساعة الحائط معلنة الثامنة.

فكّر "باق نصف ساعة على الإفطار، سأقوم بجولة في الحدائق" .

اقتنصها فرصة، تقدّم خطوة إلى الممر الدائري حاملا صحيفة الصباح ملفوفة. نادرا ما قام بفعلين مفاجئين، ومع ذلك فقد تزايد نفس ذلك الشعور أثناء الذهاب بعيدا وسط الهواء الطلق. سحب عدّة أنفاس عميقة منصتا لصوت التنفس العميق الذي أوصى به الطبيب زوجته، لكن ذلك الإحساس تزايد بدلا من أن يتراجع.. كما لو أنّ بعض خمور معتقة حلوة المذاق تسربت إلى حلقه جنبا إلى جنب مع إحساس ألم خافت فوق قلبه تماما. فكّر فيما تناوله الليلة الماضية. لم يتذكّر أيّ طبق غير عادي، ربّما حدث أنّ رائحة ما قد أثرت عليه. لم يكتشف أيّ شيء باستثناء عطر ليمون حلو خافت، نضح بجلاء من شجيرات متبرعمة في ضوء الشمس. كان على وشك استئناف نزهته، حين باغته صوت شحرور مندفعا في الغناء، فتلفت السيد "نلسون" فرأى على بعد خمس ياردات شجرة صغيرة، عشش الطائر في قلب فروعها. وقف يحدّق بفضول إلى هذه الشجرة، متعرّفا على أنّها هي تلك التي لاحظها من نافذته. كانت مغطاة ببراعم فتيّة، قرنفلية وبيضاء، مع أوراق صغيرة ساطعة خضراء مستديرة وشائكة، وقد تألق ضوء الشمس على كلّ البراعم والأوراق. مكث هناك يتطلع إلى الشجرة مبتسما.

فكّر "يا له من صباح! وقد كنت أنا الشخص الوحيد في الساحة الذي كان لديه فرصة الخروج و... !" لكنه سرعان ما أيقن أنّه تعجّل في حكمه حين رأى رجلا على مقربة منه تماما ويداه وراء ظهره. كان هو أيضا يحملق في الشجرة الصغيرة ويبتسم. وبدلا من التراجع، توقف السيد "نلسون"

عن الابتسام ناظرا خلسة إلى الغريب. كان ساكن البيت المجاور، السيد "تاندرام"، المعروف جيدا في المدينة، والذي شغل المنزل المجاور لما يقرب من خمس سنوات. فكّر السيد "نلسون" فورا في حرج موقفه. ورغم كونهما متزوجين، فلم تتح لهما أيّة مناسبة كي يتحدثا. قرر في نهاية المطاف، متشككا من أيّ تصرف سليم، أن يغمغم:

- صباح جميل!

وبينما كان يمضي، أجاب السيد "تاندرام":

- جميل في مثل هذا الوقت من السنة!

تشجع السيد "نلسون" كي ينظر إليه جهرا، حين اكتشف عصبية طفيفة في صوت جاره. كان في مثل وزن السيد "نلسون"، بوجنتين مكتنزتين نابضتين بالحياة، مع شارب بنّي أنيق، وعينين مستديرتين، صريحتين، رماديتين بوضوح، وكان مرتديا سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين. لاحظ السيد "نلسون" أنّ لديه أيضا صحيفة صباح ملفوفة وراء ظهره بدت عندما تطلع إلى الشجرة الصغيرة. داخله بشكل ما شعور حاد أن يوقع به:

- هل يمكنك أن تخبرني باسم تلك الشجرة؟

أجاب السيد "تاندرام":

- لقد كنت على وشك أن أطلب منك ذلك.

وخطا باتجاه الشجرة، واقترب منها السيد "نلسون" أيضا، قائلا:

- من المؤكد أن يكون اسمها مكتوبا عليها، كما أعتقد.

كان السيد "تاندرام" هو أول من رأى لافتة صغيرة، قريبا من المكان الذي جلس فيه الشحرور، فقرأها:

– **سفرجل يابانية!**

قال السيد "نلسون":

– **أوه ، أزهار مبكرة، كما أعتقد.**

– **تماما..**

وافق السيد "تاندرام"، وأضاف:

– **يا له من شعور طيّب يسود الهواء اليوم.**

أومأ السيد "نلسون"، قائلا:

– **كان شحرور يغني .**

– **شحارير .**

أجاب السيد "تاندرام"، واستطرد:

– **إنني أفضلها على طيور الدجّ المغرّدة، فهي أكثر تجسّدا عند الملاحظة.**

وتطلع إلى السيد "نلسون" بطريقة وديّة تقريبا.

– **تماما..**

غمغم السيد "نلسون"، ثم استطرد:

– **هذه أشجار غريبة، إنها لا تحمل ثمارا بل زهرة جميلة!**



ثم حملق ثانية إلى الزهرة، مفكّرا "رفيق طيّب هو، الأحرى أن أحبّه!"

حدّق السيد "تاندرام" إلى الزهرة أيضا. ارتجفت الشجرة الصغيرة وتوهّجت كما لو أنها تقدّر اهتمامهما. ومن بعيد أطلق الشحرور نداء واضحا بصوت عال. نكّس السيد "نلسون" عينيه. صدمه النداء فجأة لدرجة أن بدا السيد "تاندرام" أحمق قليلا ، وكما لو أنّه رأى نفسه، قال:

- ينبغي أن أعود. عمتم صباحا!

غمر ظلّ وجه السيد "تاندرام"، كما لو أنه لاحظ فجأة شيئا ما حول السيد "نلسون"، وأجاب:

- عمت صباحا!

وانفصلا حاملين صحيفتيهما وراء ظهريهما.

رجع السيد "نلسون" بخطواته من حيث أتى نحو نافذة حديقته، سائرا ببطء كما لو ليتجنب الوصول في نفس وقت وصول جاره. وعندما شاهد السيد "تاندرام" يصعد السلالم الحديدية الموصلة لداره، صعد بدوره هو أيضا، وتوقف عند الدرجة العليا.

بدت شجرة السفرجل اليابانية وسط أشعة شمس الربيع المائلة المتدفقة أكثر حياة من مجرّد شجرة. كان الشحرور قد رجع إليها، وراح يغني من أعماق قلبه.

تنهّد السيد "نلسون"، استشعر مرّة أخرى ذلك الإحساس الغريب، ذلك الشعور الخانق في حلقه.

لفت انتباهه صوت كحّة أو تنهد. كان السيد "تاندرام" قد وقف في ظلّ نافذته الفرنسية ينظر هو أيضا إلى الأمام عبر الحدائق إلى شجرة السفرجل الصغيرة.

تحوّل السيد "نلسون" فجأة إلى المنزل شاعرا بقلق غير قابل للتعليل، وفتح جريدته الصباحية.

للأمريكي: هـ. بي. لوفكرافت

ما وراء حائط النوم

كثيرا ما تساءلت عمّا إذا كانت الغالبية العظمى من الجنس البشري قد توقفت أحيانا في أيّ وقت للتفكير في مغزى أهمية الأحلام، وفي العالم الغامض الذي تنتمي إليه. ورغم أنّ أكبر عدد من رؤانا الليلية ربّما ليست أكثر من انعكاسات باهتة ورائعة من تجارب يقظتنا كما رآها "فرويد" بتفسيره الصبياني الرمزي، فإنّ هناك ملمحا معيّنا مازال باقيا لشخصية أثيرية حصينة، يسمح بتفسير عادي، تشير آثار لمحاته الممكنة الدقيقة المقلقة المثيرة الغامضة إلى وجود مجال عقلي لا يقلّ أهمية عن الحياة الماديّة، تفصله عن تلك الحياة حواجز غير مطروقة.

لا أستطيع أن أشكّ، من واقع خبرتي، إنّ هذا الرجل الذي فقد وعيه الأرضي، كان من الماكثين، حقا، في حياة غير ماديّة ذات طبيعة بعيدة مختلفة عن الحياة التي نعرفها، لم يبق منها بعد اليقظة سوى أضأل ذكريات أغلبها غير واضح. قد نستنتج الكثير من بقايا تلك الذكريات المجتزأة، وإن لم يثبت منها إلا القليل حتى الآن. قد نفترض في حياة الأحلام، موضوعا وحيوية، كما لو تعرف الأرض أنّ مثل هذه الأمور ليست ثابتة بالضرورة، وأن الزمان والمكان لا وجود لهما كما تفهمهما نفوسنا اليقظة أحيانا. أعتقد أنّ هذه الحياة الأقلّ ماديّة هي حياتنا الأصدق، وأن وجودنا العبثي على كوكب الأرض هو في حدّ ذاته أمر ثانوي أو مجرّد ظاهرة واقعية.

كان ذلك حلم يقظة من شاب مليء بتكهنات من هذا النوع، أثرتها فيما بعد ظهيرة أحد أيام شتاء 1900-1901، عندما أُحضِر إلى مؤسسة الدولة للأمراض النفسية، التي كنت أشغل فيها منصب طبيب مقيم، رجل أصبحت حالته تلاحقني دون توقف منذ ذلك الحين. كان اسمه، على النحو الوارد بالسجلات، هو "جو سلاتر"، أو "سلادر"، وكان ظهوره كمقيم نموذجي من منطقة جبال "الكاتسكل"، أحد أولئك الغرباء، سليلًا منفرًا لمجموعة فلاحي مستعمرة بدائية معزولة منذ ما يقرب من ثلاثة قرون في معاقل جبلية من ريف نادرا ما يسافر إليه أحد، ولعلّ ذلك هو ما سبّب لهم أن يغرقوا في نوع من انحطاط همجي، بدلا من التقدّم إلى مناطق أكثر حظًا استقرت بكثافة أخوية. من بين هؤلاء قوم شواذ، تطابقوا تماما مع عنصر منحطّ في الجنوب، لا وجود فيها لقانون أو أخلاق، ووضعهم العقلي العام ربّما كان على الأرجح أدنى من أيّ فئة أخرى من الشعب الأمريكي الأصيل.

"جو سلاتر"، الذي جاء إلى المؤسسة تحت حراسة يقظة من أربعة من رجال شرطة الولاية، وصف بأنّه شخصية ذات طابع خطير للغاية، لكن عندما وقع عليه نظري لأول مرّة لم يقدّم أيّ دليل على تصرّف محفوف بالخطر. وعلى الرغم من أنه بدا في منزلة أعلى بكثير من المتوسط، إذا عضلات مفتولة إلى حدّ ما، فإنّه أعطى انطباعا بمظهر سخيف من غباء غير مؤذ بشحوبه، وزرقة عينيه الناعستين الدامعتين، وضآلة لحيته الصفراء المهملة دون أن تحلق أبدا، وتدلي شفته السفلى الفاترة الثقيلة. لم يعرف عمره، ما دامت سجلات عائلية غير موجودة ، ودون أيّ علاقات عائلية

دائمة، لكن جرّاح الرأس سجّله بناء على صلع رأسه، ومن حالة تهاوي أسنانه، على أنّه رجل قارب الأربعين.

وقد علمنا من الوثائق الطبية والقضائية كلّ ما يمكن أن يجمع حول حالة هذا الرجل: هو مشرّد، صيّاد، صانع أفخاخ، كان دائما غريبا في عيون رفاقه البدائيين. اعتاد أن ينام ليلا في أوقات غير معتادة، وعند الاستيقاظ كان يتحدّث غالبا حول أمور غير مألوفة على نحو غريب تبثّ الرعب في قلوب جماهير لا تتمتع بأيّ خيال. كما لم يكن نمط لغته معتادا كلية؛ لأنّه لم يكن يتحدث إلا لهجة عامية من بيئته. لكن لهجته وفحوى كلامه كانتا وحشيّتين غامضتين، لدرجة أن أحدا لم يسمعه دون خشية. وعموما هو نفسه كان خائفا وحائرا مثل مستمعيه، وبعد مضي ساعة من يقظته يكون قد نسي كلّ ما قال، أو على الأقلّ ما تسبب في أن يقول أنّه حدث، عائدا إلى الحياة الطبيعية باعتيادية نصف ودّية، مثل أولئك الآخرين ساكني التلال.

بدأت هذه المأساة المروعة التي تسببت في اعتقاله بواسطة السلطات قبل وصوله إلى المؤسسة بحوالي شهر ؛ إذ بينما كان "سلاتر" يكبر، بدا أن انحرافاته قد اتسعت تدريجيا من ناحيتي التكرار والعنف.

حدث ذات يوم بعد سبات عميق قرب الظهر أن أيقظ الرجل نفسه فجأة وهو يعول بصوت فظيع جدا وغريب. كان في الخامسة من بعد ظهر اليوم السابق قد تجرّع ويسكي بعنف. جاء الجيران على أثر عويله المرتفع إلى حجرته التي كانت مكانا قذرا لا يمكن وصفه، والتي سكن فيها أولا مع أسرته مثلما استمرّ هو على النحو ذاته فيما بعد. اندفع خارجا إلى الثلج، فاتحا

ذراعية عاليا، وبادئا سلسلة قفزات متصاعدة في الهواء، بينما يصرخ بعزمه على الوصول إلى "**حجرة كبيرة كبيرة. ساطعة السقف والجدران والأرضية، تنساب فيها من بعيد موسيقى عالية عليلة غير مألوفة**". بينما سعى رجلان من حجم معتدل إلى كبح جماحه، لكنه قاومهما بقوّة مهووسة وغضب صارخا برغبته وحاجته إلى إيجاد وقتل ذلك "**الشيء الذي يضيء ويهتز ويضحك**". أخيرا، بعد محاولات مستمرة أسقط أحد مواجهيه بضربة مفاجئة، ورمى بنفسه على الآخر صائحا بوحشية في نشوة مجنونة من تعطّش إلى الدم، بأنّه قد "**يقفز عاليا في الهواء، مزيلا من طريقه أي شيء قد يوقفه**".

فرّت الأسرة والجيران من طريقه، بينما رجع الأكثر شجاعة منهم بعد حين. كان "سلاتر" قد ذهب مخلفا وراءه بقايا شيء لا يمكن التعرّف عليه لرجل كان حيّا منذ ساعة واحدة مضت. لم يجرؤ أحد من سكان الجبل على ملاحقته، وإن كان من المرجح أنهم رحّبوا بوفاته من البرد، لكنهم أدركوا في وقت لاحق بعد عدّة أيام أنّه مازال حيّا عندما سمعوا صراخه من واد بعيد، فخمنوا أنه تمكّن من البقاء على قيد الحياة بطريقة ما، وأصبح من الضروري إبعاده بطريقة أو بأخرى. ثم تتبعوا فرقة بحث مسلحة (أيّا كان هدفها في الأصل) أصبح يقودها مأمور شرطة كان قد لاحظ ما يجري صدفة كرجل من رجال الدولة فحقق أولا في الأمر ، ثم انضم أخيرا إلى الباحثين.

في اليوم الثالث، ثم العثور على "سلاتر" فاقد الوعي في جوف شجرة فاقتيد إلى أقرب سجن حيث فحصه أشخاص غرباء من "ألباني" حالما عاد إلى رشده. وقد سرد عليهم قصة بسيطة. لقد ذهب، كما قال، للنوم في فترة



ما بعد ظهيرة قرب غروب الشمس بعد أن شرب خمرا كثيرا. وقال إنه استيقظ ليجد نفسه واقفا ملوث اليدين بالدماء في الثلج أمام غرفته. وكانت هناك جثة مشوّهة لجاره "بيتر سلادر" عند قدميه. انتقل مرعوبا إلى الغابة بجهد غامض هربا من المشهد الذي لابد أن يكون جريمته. ولم يكن يعرف شيئا فيما عدا ذلك، ولم يستطع خبيرا استجواب من المحققين أن يتوصّلا إلى حقيقة واحدة إضافية.

نام "سلاتر" بهدوء تلك الليلة، واستيقظ في الصباح التالي دون أيّ إشارة إلى تغيير معَيّن في التعبير. فكر "د. برنار" الذي كان يراقب المريض، أنه لاحظ في عينيه الزرقاوين الشاحبتين توهّجا من نوع محدد، وبدا على شفتيه إحكام شديد غير محسوس كما لو كان بإصرار عقلاني بارع. لكن عندما سأله، ارتد إلى فراغه المعتاد عند ساكني الجبل، وكرر فقط ما سبق أن قاله في اليوم السابق.

وقعت في صباح اليوم الثالث أولى نوبات جنون الرجل العقلية، بعد أن تعرّض لنوم متوتر قلق، حين انفجر في نوبة جنون قويّة لدرجة أنّه احتاج إلى تضافر جهود أربعة رجال لتقييده بسترة الجنون. وقد أثار فضول الأغراب من حوله بقصصه الموحية المتضاربة غير المتماسكة في الغالب عن أسرته وجيرانه، فأنصتوا باهتمام حذر إلى كلماته. اهتاج "سلاتر" لأكثر من خمس عشرة دقيقة. وهو يهذي بلهجة غير معروفة حول مبان خضراء دون ضوء، محيطات في فضاء، موسيقى غريبة، وجبال ووديان غامضة. لكن الأهمّ من ذلك كلّه أنّه سكن وجودا متألقا أثار الاهتزاز والضحك والسخرية منه. بدا أن تلك الشخصية الغامضة قد أوصلته إلى ارتكاب

خطأ رهيب وقتل ، وهو في ذروة رغبة قصوى لانتقام مبتهج بالنصر. وحتى يمكن الوصول إليه، كما قال، ينبغي أن يحلق خلال متاهة الفراغ، مدمّرا أيّ عقبات قد تعترض طريقه.

هكذا جرى خطابه، حتى أوقف بمفاجأة عظيمة عندما خمدت نار الجنون في عينيه، وتطلع إلى السائلين بنظرة تساؤل ملول، سائلا لماذا قيّد. فكّ "د. برنار" القيود الجلدية، ولم يعدها حتى الليل، عندما نجح في إقناع "سلاتر" بارتدائها من تلقاء نفسه لمصلحته. وقد اعترف الرجل الآن بأنه يتكلم أحيانا بغرابة على الرغم من أنّه لا يعرف السبب.

حدثت نوبتان أخريان في غضون الأسبوع الثاني، استفاد منها الأطباء قليلا، وإن توقعوا بالنسبة لمصدر رؤى "سلاتر" أن تستمرّ. ونظرا لأنّه لم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة، وكان على ما يبدو لم يسمع أيّ أسطورة أو خرافة؛ لذلك كانت حالته لا يمكن تفسيرها. إنها لم تستمد من أيّ أسطورة معروفة أو حكاية رومانسية خصوصا في ضوء حقيقة أنّ جنونه قد عبّر عن نفسه فقط لسوء الحظ بأسلوب خاص بسيط. لقد اهتاج من أشياء لم يفهمها ولم يستطع تفسيرها، أشياء ادّعى أنه خبرها، لكن لم يكن ممكنا أن يعرفها من خلال رواية عادية. وقد وافق الغرباء سريعا على أن أحلاما غير طبيعية كانت أساس المشكلة، أحلام لشدّة حيويتها كانت تهيمن تماما على العقل المتيقظ لهذا الرجل الأقلّ شأنا في الأساس.

وبسبب شكليات حوكم "سلاتر" بتهمة القتل، وبُرِّئ على أرضية واقع الجنون، وألحق بالمؤسسة حيث كنت أشغل تلك الوظيفة المتواضعة.

لقد قلت إنني متأمّل مستمرّ فيما يتعلق بحياة الأحلام، ومن هذا ربّما تحاكمني على حرصي في تقديم نفسي لدراسة مريض جديد بمجرد أن تأكدت تماما من وقائع قضيته. بدا أنه لمس ودّا معيّنا مني، تولد دون شكّ من الاهتمام الذي لم أستطع إخفاءه، ومن الطريقة اللطيفة التي سألته بها. لكنه لم يستطع التعرّف عليّ خلال نوباته، حين تعلقت لاهث الأنفاس بفوضوية وكونية صور كلماته، وإن عرفني خلال ساعاته الهادئة، عندما كان يجلس بجوار نافذته المسوّرة ناسجا سلالا من قش وصفصاف، وربّما متلهفا من أجل حريّة الجبل التي لن يتمتع بها مرّة أخرى. لم تتصل أسرته أبدا لرؤيته لاحتمال أنها وجدت راحة مؤقتة في الابتعاد عنه بعد سلوك أهالي الجبل المنحط.

بدأت أشعر بغرائب عالية الدرجة في مفاهيم المجنون الرائع "جو سلاتر". كان الرجل نفسه يستحقّ الشفقة في العقلية أو من الناحية اللغوية على حدّ سواء، لكن توهّجه ورؤاه الهائلة على الرغم من وصفها بمصطلحات وحشية مفككة، كانت بالتأكيد أشياء نابعة من عقلية متفوّقة أو استثنائية يمكنها تصوّر كيف، وغالبا ما سألت نفسي، كيف يمكن لخيال متبلد الحسّ من نوعية بشر منطقة "كاتسكل" أن يستحضر ويولد مشاهد تتم حيازتها عن شرارة كامنة من عبقرية؟ كيف يمكن لأبله غابات غير مأهولة أن يكتسب فكرة عن عوالم متألفة من إشراق علوي، وفضاء حوّلها "سلاتر" إلى هذيان غاضب؟ وقد تعلقت أكثر وأكثر باعتقاد أنّ تلك الشخصية المثيرة للشفقة التي تنكمش أمامي خوفا قد استقرت فيها نواة

شيء يتجاوز قدرتي على الفهم، شيء لا نهائي يتجاوز فهم الزملاء الأكثر خبرة، لكنهم زملاء أقل تخيّلا من الناحية الطبية والعلمية.

لم يمكني حتى الآن استخراج شيء واضح من الرجل. كان مجموع كلّ تحقيقاتي أنّه إذا كان هناك نوع شبه مادي لحياة الأحلام فان "سلاتر" قد تجوّل أو طفا عبر وديان، مروج، حدائق، مدن، وقصور من ضوء متألقة ومذهلة في منطقة غير محدودة وغير معروفة للإنسان؛ لأنه لم يكن فلاحا أو شخصا مريضا عقليا أو جسمانيا، بل مخلوق له أهميّة وحياة حيّة، متحرّك بكلّ فخر ومهيمن، مراجع فقط من قبل عدوّ معين قاتل، بدا ذا بنية غير مادية بوضوح، ولم يظهر في شكل بشري، طالما أن "سلاتر" لم يشر إليه أبدا كإنسان، أو ما ينبغي الحفاظ عليه كشيء. قدّم هذا الشيء لـ"سلاتر" بعض أعمال شنيعة وأخطأ حين لم يكشف عن اسمه، ممّا جعل منه ممسوسا (إذا كان ممسوسا) يتوق للانتقام.

من الأسلوب الذي ألمح به "سلاتر" إلى تعاملاته، توصّلت إلى أنّه والشيء المضيء قد اجتمعا معا على قدم المساواة؛ لأنّه في وجود حلمه كان الرجل نفسه شيئا مضيئا من نفس العرق كعدوّه. استقر هذا الانطباع بإشاراته المتكررة للتحليق في الفضاء حارقا كلّ ما يعرقل مسيرته. وحتى الآن، وضعت هذه المفاهيم في كلمات ريفية غير كافية على الإطلاق كي تبلّغها. إن الطرف الذي دفعني إلى استنتاج أنه إذا كان عالم الحلم موجودًا في الواقع حقا، فإن اللغة الشفاهية ليست هي الوسيط لنقل ذلك الفكر. هل يمكن أن تكون روح الحلم هي التي تسكن هذه الهيئة الأدنى منزلة

التي تناضل بيأس للتحدّث بأشياء لا يمكن للسان بليد بسيط أن ينطق بها؟ هل يمكن أن تكون تلك الأمور التي واجهتها وجها لوجه نتيجة انبثاق فكري من شأنه أن يفسّر الغموض، إذا كان بإمكاني أن أتعلم اكتشافها وقراءتها؟ لكني لم أخبر الأطباء القدامى بهذه الأشياء لأنّ أطباء منتصف العمر يكونون عادة شكاكين، متهكمين، وليسوا على استعداد لقبول أفكار جديدة. بالإضافة إلى أن رئيس المؤسسة قد حذرني مؤخرا بأسلوبه الأبوي من أنني كنت أعاني من إرهاق في العمل، وهو ما يجعل ذهني في حاجة إلى الراحة.

كان اعتقادي منذ فترة طويلة أنّ الفكر البشري يتكوّن أساسا من حركة ذرات أو جزيئات تتحوّل إلى موجات أثيرية أو طاقة إشعاعية مثل الحرارة، الضوء، والكهرباء. قادني هذا الاعتقاد مبكرا إلى التفكير في إمكانية التخاطر أو التواصل العقلي بواسطة أجهزة مناسبة، وكنت قد أعددت في أيام دراستي الجامعية أجهزة إرسال واستقبال تشبه إلى حد كبير الأجهزة المستخدمة في نظام البرقيات اللاسلكية في فترة ما قبل المذياع. وقد جرّبتها مع زميل من الطلبة، دون أن أحقق أيّ نتيجة، لذلك سرعان ما حفظتها بعيدا مع أشياء علميّة أخرى، انتهيت إلى إمكانية استخدامها في المستقبل.

والآن، نتيجة رغبتي الجارفة في تأمل أحلام "جو سلاتر"، سعيت إلى تلك الأجهزة مرّة أخرى، وأمضيت عدّة أيام في إصلاحها وإعدادها للعمل. وحين اكتملت ثانية، لم أفتقد الفرصة لتجربتها. كنت أضع المرسل على جبهة "سلاتر" في كلّ نوبة عنف، وأضع المستقبل على جبهتي، وكنت

أجري باستمرار تعديلات طفيفة لمختلف أطوال موجات الطاقة الفكرية المفترضة.. لم أتوصّل سوى للقليل عن كيف ستكون التعبيرات الفكرية إذا نقلت بنجاح، مثيرة استجابة فكرية في ذهني، لكنني شعرت بيقين من أنني أستطيع اكتشافها وتفسيرها. لذلك واصلت تجاربي دون إبلاغ أيّ فرد بطبيعتها.

حدث ذلك الشيء في الحادي والعشرين من فبراير عام 1901. وعندما أنظر إلى الخلف عبر تلك السنوات، أدرك كم تبدو غير واقعية. وأحيانا أتساءل إذا لم يكن الطبيب "فينتون" على صواب عندما أرجع كلّ ذلك إلى مخيّلتي المتحمّسة، وأتذكّر أنّه أنصت بلطف كبير وصبر حين أخبرته، لكنه أعطاني بعد ذلك مسحوقا كدواء للأعصاب، ورتّب لي قضاء نصف سنة إجازة، نفذتها فورا بدءا من الأسبوع التالي.

كنت أتحرّك في تلك الليلة المشؤومة بعنف بالغ وقلق لأنّه على الرغم من العناية الممتازة التي تلقاها "جو سلاتر"، كان يحتضر دون شكّ. ربّما كان السبب حريّة الجبل التي افتقدها، أو ربّما زادت حدّة الاضطرابات في دماغه مقارنة ببنيته الضعيفة، لكنها كانت في جميع الأحوال شعلة حيوية ومضت بشكل منخفض في جسم متدهور. كان ناعسا قرب النهاية، وبينما هبط الظلام سقط في نوم مضطرب.

لم أكن قد ربطت حزام القيد كما جرت العادة حين نام، وذلك منذ أن رأيت كم كان ضعيفا للغاية من أن يكون خطيرا، حتى لو استيقظ وسط اضطراب عقلي مرّة أخرى قبل وفاته. لكنني وضعت فعلا طرفي

"مذياعي" الكوني على رأسه ورأسي، آملا كل الأمل في رسالة أولى وأخيرة من عالم الأحلام في الفترة الوجيزة المتبقية. كان في الحجرة معنا ممرضة واحدة، زميلة عادية لم تفهم الغرض من الجهاز، أو تفكّر في الاستفسار عمّا أفعل. وبينما الساعات تنقضي، رأيت رأسه يسقط برعونة في النوم، لكنني لم أزعجه. وقد ارتكزت أنا نفسي إلى تنفس متوازن للأصحاء مع الرجل المحتضر، ولابد أنني ملت برأسي قليلا بعد ذلك.

كان ما أثارني هو صوت لحن غنائي غريب، عندما ترددت بحماس أصداء أوتار، واهتزازات، ونشوات متناغمة في جانب، بينما اجتاح بصري انفجار مشهد جميل مذهل في نهاية المطاف. حين توهّجت الجدران، والأعمدة، والأعتاب في نار حيّة، توهجت ساطعة حول المكان الذي بدا أنّي طفوت فيه من الهواء، متمددا إلى أعلى، إلى قبة عالية من نوعية لا توصف، بلا حدود. كنت منسجما مع عرض رائع فخم، أو بالأحرى، من إحلاله في بعض الأحيان في تناوب ملوّن، بدت فيه لمحات من سهول ووديان رشيقة، ودعوة من جبال عالية وكهوف، مغطاة بكلّ سمة جميلة من مناظر طبيعية أسرت عيني بكل ما يمكن تصوّره، متشكلة كلية من بعض كيانات متوهّجة أثيرية، امتزجت بأكبر قدر من الاتساق بين الروح والمادة. وبينما كنت أحدّق، أدركت أن عقلي نفسه قد أمسك بمفتاح هذه التحوّلات السحرية، فكلّ صورة ذهنية ظهرت لي كانت هي الواحدة التي رغب عقلي المتغيّر أن يمسك بها أكثر. وقد سكنت وسط هذا المجال السماوي غير غريب ؛ لأنّ كلّ مشهد وصوت كان مألوفا لي، تماما مثلما كانت عليه الأمور لعصور خلود لا تحصى من قبل، وربّما ستكون بالمثل لعصور خلود قادمة.

ثم اقتربت هالة رفيقي المتألقة من نور، ووافقت على الحكي معي، روحا لروح، بصمت وكمال فكري. كانت اللحظة تمثل اقترابا من نصر، ليس بسبب هروب زميلي الكائن أخيرا من قيد العبودية، هروبا للأبد، واستعدادا للمتابعة إلى أقصى الحقول الأثيرية ؛ إذ ربّما أصبح مخلوق انتقام كونيًّا متوهّجًا من شأنه أن يهزّ المجرات. هكذا طفونا لوقت قصير، عندما وصلني وضوح رؤية طفيف، كانت الأشياء من حولنا تتلاشى، كما لو بفعل قوّة تذكّرني بالأرض التي مازلت أرغب على الأقل في الذهاب إليها. بدأت أشعر بتغيّر الشكل القريب مني أيضا؛ لأنّه كان يوجّه مساره تدريجيا نحو الختام، واستعد هو بنفسه للانسحاب من المشهد متلاشيا عن النظر بمعدل سرعة أقلّ إلى حدّ ما مقارنة بالكائنات الأخرى. وتم تبادل المزيد من الأفكار، وعرفت أنه تمّ استدعاء الشخص المضيء وأنا إلى القيد، رغم أنها ستكون بالنسبة لرفيقي الضوئي هي المرّة الأخيرة. لقد قضيت حزينا أمسية قريبا من غلاف الكوكب، وفي أقلّ من ساعة سيكون رفيقي قد تحرر من المطاردة على طول درب التبانة ماضيا نحو نجوم قريبة من تخوم اللانهاية.

تفصل صدمة واضحة المعالم انطباعي الأخير عن المشهد المتلاشي للضوء في صحوة مفاجئة خجولة بعض الشيء. كنت متصلبا في مقعدي، بينما كنت أرى الشخص المحتضر على الأريكة يتحرّك مترددا. كان "جو سلاتر" يستيقظ فعلا، رغم أنّ ذلك ربّما يكون للمرّة الأخيرة. وبينما كنت أمعن النظر، رأيت بقعا ملونة لم تكن موجودة من قبل أبدا تشرق على الوجنتين الشاحبتين. بدت الشفتان غير عاديتين أيضا وهما مضغوطتان

بإحكام، كما لو بفعل قوة شخص أقوى عمّا كانه "سلاتر". أخيرا بدأ يتفشى التوتر في الوجه كله، واستدارت الرأس بقلق مغلقة العينين.

لم أوقظ الممرضة النائمة، لكنني عدلت عصابة الرأس الخاصة بمذياعي التخاطري، التي انحرفت عن مكانها قليلا، عازما على التقاط أيّ رسالة قد يسلمها الحالم. حدث فجأة أن تحولت الرأس بشدة باتجاهي، وانفتحت العينان، مسببة لي أن أحدّق في الفراغ المذهل الذي رأيته. كان الرجل "جو سلاتر"، ابن الـ"كاتسكل" المتدهور، يحدّق إليّ بعينين مضيئتين واسعتين، بدت زرقتهما وقد تعمقتا برقّة. لم يكن واضحا في تلك النظرة أيّ هوس أو تفسّخ، وقد شعرت بما لا يدع مجالا للشكّ أنني أشاهد وجها يكمن وراءه عقل نشط بدرجة عالية.

أصبح ذهني في هذا المنعطف على بيّنة من تأثير خارجي ثابت أعمل عليه. أغلقت عيني حتى أركّز أفكاري بشكل أعمق، وقد كوفئت بمعلومة إيجابية حين جاءت أخيرا رسالة نفسيّة طال انتظاري لها. كلّ فكرة مرسلة تشكلت بسرعة في ذهني، ورغم عدم استخدام لغة فعلية، فإنّ ارتباطي المعتاد للحمل والتعبير كان كبيرا لدرجة أن بدا أنّي أستقبل الرسالة باللغة الإنجليزية العادية.

"إن جوسلاتر يحتضر"، جاء صوت الذات المرعوبة بقوّة من وراء حائط النوم. شاهدت عيناي المفتوحتان مكمن ألم من رعب غريب، لكن العينين الزرقاوين مازالتا تحدّقان بهدوء، ولا تزال ملامحه مفعمة حيوية بذكاء. "من الأفضل أن يموت، لأنه غير مؤهل لتحمل الفكر النشط لكيان

كوني. لم يستطع جسمه أن يخضع للتعديلات اللازمة بين حياة أثيرية وحياة أرضية. إنه كائن حيّ بشكل كبير، رجل صغير جدا، لكن من خلال نقصه أتيت لاكتشافي؛ لأنّ الأرواح الكونية والكوكبية لا ينبغي أن تلتقي بحقّ أبدا. لقد كان عذابي وسجني النهاري لمدة اثنين وأربعين من سنواتك الأرضية".

"أنا كيان مثل ذلك الذي أصبحته أنت نفسك وسط حريّة نوم بلا أحلام. أنا أخوك في الضوء، وقد طفوت معك في وديان متألقة. غير مسموح لي أن أخبر ذاتك الأرضية اليقظة بنفسك الحقيقية. لكننا جميعا متجوّلون في فضاءات واسعة ومسافرون عبر عصور عديدة. قد أسكن العام القادم في مصر التي تسميها القديمة، أو الإمبراطورية الصلبة لـ"تسان شان" التي ظهرت منذ ثلاث آلاف سنة. لقد جنحت أنا وأنت إلى العوالم التي ترنّحت حول نعش أحمر وسكنت في أجسام فلاسفة، حشرات تزحف بفخر فوق ضوء القمر الرابع لكوكب المشتري. كم هو قليل ما تعرف الأرض عن نفسها حول الحياة ومداها! وكم هو قليل حقا ما ينبغي أن نعرفه من أجل سكينتها الخاصة!

"لا أستطيع أن أتحدّث عن المهيمن. أنتم على الأرض تعرفون دون وعي بوجوده البعيد. أنت عديم الجدوى دون معرفة. لقد منحت دون إرادة منارة وامضة باسم الـ"جول"، النجم الملعون. وقد انطلقت الليلة بتأثير العدوان فقط، وبتوهّج انتقام عنيف. راقبني في السماء بجوار النجم الملعون".

"لا أستطيع التحدّث لفترة أطول ؛ لأنّ جسم "سلاتر" يتزايد برودة وتجمدا، وقد توقف مجرى العقل عن التردد كما أتمنى. لقد كنت صديقي الوحيد على هذا الكوكب، الروح الوحيدة التي تشعر وتبحث من أجلي داخل شكل مطارد يقع في هذا المتكأ. سنلتقي ثانية ربّما في السحب الساطعة لـ"أوريون سورد"، ربّما على هضبة قاتمة في زمن ما قبل التاريخ بآسيا، ربّما في أحلام غير متذكرة لهذه الليلة، ربّما في زمن من دهر آخر، عندما ينزاح النظام الشمسي".

عند هذه النقطة توقفت فجأة عن الاتصال موجات الفكر في عيني الحالم الشاحبتين - أو يمكن القول لرجل ميت - كي تغشى بشكل شخصي. عبرت مذهولا إلى المتكأ وتحسست معصمه، لكني وجدته باردا، قاسيا، عديم النبض. بدت الوجنتان شاحبتين، وانفتحت شفتاه الغليظتان، كاشفتين عن أسنان فاسدة كريهة للمتفسّخ "جو سلاتر". ارتعشت، سحبت ملاءة على وجهه البشع، وأيقظت الممرضة. ثم نزعت جهاز الاتصال، ومضيت صامتا إلى غرفتي. كان لديّ شغف فوري لنوم لا ينبغي تذكّر أحلامه، غير خاضع للمساءلة.

الذروة؟. أيّ قصة علمية ممتدة يمكنها أن تباهي تأثير مثل هذه الخطابية؟ لقد حددت فقط بعض أمور لها جاذبية بالنسبة لي على أنّها حقائق، ممّا يسمح لك أن تفسّرها كما تشاء. وكما سبق واعترفت بالفعل، فإنّ أستاذي، دكتور فنتون العجوز، نفى واقعية كلّ ما ذكرت. فأعلن أني انهرت من ضغط عصبي، وبحاجة ماسة إلى إجازة طويلة بأجر كامل منحها لي بسخاء. وهو يؤكد بشرفه المهني أن "جو سلاتر" كان مصابا

بانفصام شخصي من درجة منخفضة، حيث جاءت مفاهيمه الرائعة من حكايات شعبية متوارثة، جرى تداولها حتى في معظم المجتمعات المتدهورة – لقد أخبرني بكلّ ذلك – لكني لا أستطيع أن أنسى ما رأيت في السماء في الليلة التالية لموت "سلاتر". ولئلا تظن أني أحد الشهود المنحازين، ها هي إضافة هامة لابد من ذكرها في هذه الشهادة الأخيرة، ربّما تكون هي الذروة التي تتوقع. سأقتبس المقطع التالي من صفحات الفلكي البارز أستاذ "جرايت بي سرفيس عن النجم "نوفا برسي":

"في 22 فبراير 1901 جرى اكتشاف نجم جديد رائع بواسطة دكتور "آندرسون" من "أدنبره"، ليس بعيدا جدا عن نجم الـ"جول". لم يظهر أيّ نجم في هذه البقعة من قبل. وخلال أربع وعشرين ساعة أصبح النجم الغريب شديد السطوع بحيث تفوّق على النجم المتألق "كابيلا"، وفي غضون أسبوع أو أسبوعين تلاشى مرآه، وخلال بضعة أشهر كان يصعب تمييزه بالعين المجردة".

للألماني: توماس مان



العاشر من سبتمبر:

وصل الخريف الآن، ولن يعود الصيف، لن أرى الصيف ثانية.

البحر رمادي صامت وجميل، بينما تسقط الأمطار منتحبة. شاهدت هذا في الصباح، وأنا أودّع الصيف وأستقبل الخريف، خريفي الأربعيني، الذي يمضي على عاتقي دون هوادة. سيجلب هذا الخريف أيضا اليوم الذي أهمس بتاريخه أحيانا لنفسي بهدوء مع شعور بالخشوع والرعب الصامت.

الثاني عشر من سبتمبر:

ذهبت في نزهة قصيرة مع الصغيرة "أسونسيون". إنها خير رفيق، فهي صامتة، تنظر إليّ أحيانا بعينين كبيرتين محبتين.

تمشينا على امتداد الشاطئ باتجاه "كرونشافن"، لكننا سرعان ما رجعنا في الوقت المناسب قبل أن نقابل فردا أو اثنين من البشر.

تطلعت بسرور إلى منزلي، بينما كنا عائدين. كم كنت موفقا في اختياره! كان رماديا بسيطا، يقع على جرف يغطيه عشب رطب ونجيل ذابل، وممرّ أصبح مكسوّا بالعشب يطلّ على بحر رمادي. يجري طريق سريع خلف

منزلي، حيث يظهر هناك مزيد من الحقول. لكنني لم أولها اهتماما: تركّزت عيناي على البحر فقط.

الخامس عشر من سبتمبر:

بدا هذا البيت وحيدا على الجرف قرب البحر تحت سماء رمادية مثل حكاية خرافية غامضة قاتمة. وهذا هو الأسلوب الذي أريد أن أكون عليه في خريفي الأخير. كنت أجلس في فترة ما بعد الظهيرة بجوار نافذة مكتبي، حين وصلت سيارة الإمدادات. ساعد العجوز "فرانز" في التفريغ. وكان هناك ضجيج، كما ارتفعت أصوات أخرى. لا أستطيع التعبير كم أزعجني ذلك. انفعلت رافضا:

- لقد أمرت أن تتمّ هذه الأعمال مبكرا فقط في الصباح، أثناء نومي.

قال "فرانز":

- كما ترغب، يا صاحب النيافة.

لكنه تطلع إلى وجهي، ملتهب العينين بتخوّف قلق.

كيف يمكنه أن يفهمني؟ إنه لا يعرف أنني لا أريد أن تمسّ الاعتيادية والضجر أيامي الأخيرة. أخشى أن يكون هناك حول الموت شيء دنيوي محافظ. أودّ أن أشعر بأنني شخص أجنبي وغريب في ذلك اليوم الخطير الكبير الملغز.. يوم الثاني عشر من أكتوبر.

الثامن عشر من سبتمبر:

لم أخرج في الأيام القليلة الماضية. قضيت معظم الوقت ممددا على "الشيزلونج". لم أستطع أن أقرأ كثيرا، ربّما بسبب أعصابي التي عذبتني. إنني أرقد ساكنا ببساطة متطلعا إلى المطر البطيء المستمر.

تجيء إلى "أسونسيون" في أغلب الأحيان. أحضرت لي زهورا في إحدى المرات، بعضها نباتات ذابلة مبتلة من تلك التي وجدتها على الشاطئ. حين قبّلت الصغيرة لأشكرها، بكت لأنني كنت "مريضا". كم هو مؤلم أن يحزن قلبي لرقتها وحبّها المعطاء.

الحادي والعشرين من سبتمبر:

جلست فترة طويلة بجوار نافذة مكتبي مع "أسونسيون" على ركبتي. تطلعنا إلى البحر الرمادي الواسع، وخلفنا استقرت غرفة كبيرة في صمت عميق بأبوابها البيضاء وأثاثها المقبول إلى حدّ ما. وبينما كنت أداعب ببطء شعر الطفلة الذي انسدل مباشرة أسود اللون على كتفيها الرقيقتين إلى أسفل، سرحت أفكاري إلى حياة عشتها حيويّة عاصفة. فكّرت في شبابي الهادئ المحمي، في رحلاتي عبر العالم كله، وفي الزمن المشرق القصير عندما كنت سعيدا.

هل تذكر ذلك المخلوق الجميل المشرق برقة تحت سماء "الشبونة" المخملية؟ لقد مرّت اثنتا عشرة سنة منذ أن حملت تلك الزوجة، وماتت وهي تضع ذراعها حول عنقك.

لقد ورثت الصغيرة "أسونسيون" عيني أمّها السوداوين، إلا أنّها أكثر إرهاقا وتأملا. لكن الأهم من كلّ ذلك أنّ لها فمها الليّن بلا حدود، فم مخطط بحدّة هو الأكثر جمالا عندما يكون ساكنا مبتسما بهدوء.

يا لصغيرتي "أسونسيون"! إذا عرفت أنني يتحتم عليّ أن أتركك، هل ستبكين لأنني كنت "مريضا"؟ أوه، كيف ينبغي أن يؤثر ذلك؟ ماذا ينبغي أن أفعل مع الثاني عشر من أكتوبر؟

الثالث والعشرين من سبتمبر:

هي أيام قليلة، تلك التي أستطيع أن أستعيدها وأضع نفسي وسط ذكرياتها. لمدّة كم من السنين سأكون قادرا على أن أفكّر في المستقبل، منتظرا ذلك اليوم العظيم المرعب، الثاني عشر من أكتوبر من عامي الأربعين؟!

كيف سيكون ذلك اليوم؟ ، كيف سيكون شكله؟ إنني لست خائفا، لكنني أراه يقترب ببطء مؤلم هذا الثاني عشر من أكتوبر.

السابع والعشرون من سبتمبر:

جاء الطبيب العجوز "جيدهيس" من "كرونشافن". جاء بسيارة عبر الطريق، وتناول طعام الغداء مع "أسونسيون" ومعي. قال وهو يتناول نصف دجاجة:

- إن من المهم للغاية، ياصاحب النيافة، أن تمارس الرياضة. فلتمارس الرياضة كثيرا بقدر ما تستطيع في الهواء الطلق. لا قراءة! لا تفكير! لا تأمّل! لديّ انطباع أنك فيلسوف، هو، هو!

حسنا، هززت كتفي، شكرته بحرارة لما عاناه. قدّم نصيحة للصغيرة "أسونسيون"، وهو يتفحصها بابتسامة مغتصبة محرجة. وكان عليه أن يعزز جرعتي من البروميد حتى أتمكّن من الحصول الآن على قدر أكثر من النوم.

الثلاثين من سبتمبر:

أخيرا، نهاية سبتمبر! وها هو الموعد يقترب، الموعد يقترب! إنها الثالثة تماما من فترة ما بعد الظهر. لقد حسبت كم دقيقة ستبقى حتى حلول الثاني عشر من أكتوبر: 8460 دقيقة.

لم أستطع النوم في الليلة الماضية، هبّت الرياح، وضربت الأمطار البحر. رقدت سامحا للزمن بالانقضاء. مفكّرا ومطيلا التفكير؟ أوه ، لا! يدعوني الطبيب "جيدهيس" فيلسوفا، لكن ذهني شديد الضعف، ولا أستطيع أن أفكّر فقط إلا في: الموت، الموت!

الثاني من أكتوبر:

يجري التغلب عليّ بعمق، وقد اختلطت عواطفي بشعور من الزهو. أحيانا عندما أفكّر في الموت، يتطلع الناس إلى وجهي بشكّ وقلق، وألاحظ أنهم يظنون أنّي مجنون، ينبغي أن أنظر إلى نفسي بشيء من الشكّ. لكنني لست مجنونا.

قرأت اليوم قصة الإمبراطور "فردريك" الذي تنبأ بموته في مدينة يتكوّن جزء من اسمها من "فلور"، لذلك تجنب مدنا مثل "فلورنسا" و"فلورنتينم". لكنه اضطر ذات يوم أن يذهب إلى "فلورنتينم"، ومات. لماذا مات؟

ليست النبوءة مهمة في ذاتها، بل سرعان ما يصبح السؤال: هل وجدت النبوءة صدى في أعماقك؟! إذا كانت قد وجدت، فهي فعلا جيّدة مثلما ثبت، وستتحقق. لذلك، هل هي النبوءة التي نشأت وقويت داخلي أكثر من أيّ قيمة أخرى قادمة من الخارج؟ وهل المعرفة التي لا تتزعزع بخصوص مسألة الوقت الذي سيموت فيه المرء مشكوك فيها أكثر من معرفة المكان؟ أوه ، الإنسان والموت مرتبطان بلا كلل! يمكنك أن تجذب الموت تجاهك بكل ما تمتلك من قوة الإرادة والاقتناع. اجعله يقترب في اللحظة التي تعتقد أنها ...

الثالث من أكتوبر:

عندما تنتشر أفكاري، في كثير من الأحيان، مثل هذه المياه الرمادية أمامي، بادية لانهائية ساجية وسط الضباب. أرى شيئا يشبه ترابطا بين أشياء، فأوقن أنني أدرك خواء أفكاري.

ما الانتحار؟ موت طوعي؟ لكن لا أحد يموت كرها. إنّ التخلي عن الحياة، هو منح فرد نفسه للموت ، فعل يحتوي دائما على ضعف، وهذا الضعف هو حتما نتيجة مرض في الجسم أو الروح، أو في كلاهما. لن يموت فرد قبل أن يتخلى عن نفسه...

هل تخليت عن نفسي؟ ينبغي أن أكون قد فعلت، لأنني أعتقد أنني سأجنّ إذا لم أمت في الثاني عشر من أكتوبر...

الخامس من أكتوبر:

أعتقد أن الموت يشغلني كليّة دون هوادة.. أفكر مليّا متى ومن أين جاءتني المعلومة، ولا أستطيع أن أقول! لقد عرفت في التاسعة عشرة أو العشرين أنني سأموت في الأربعين من عمري، وعندما سألت نفسي ذات يوم بإصرار عن اليوم الذي سيحدث ذلك فيه، عرفت التاريخ أيضا!

والآن، اقترب الموعد، اقترب بشدّة لدرجة أنني أكاد أشعر تقريبا بأنفاس الموت الباردة.

السابع من أكتوبر:

اشتدت قوة الرياح، وارتفع زئير البحر، بينما استمرت دقات طبول المطر على السطح. لم أنم في الليلة الماضية، فذهبت إلى الشاطئ مرتديا معطفي الثقيل، وجلست على حجر.

انتصب جرف، خلفي وسط ظلام ومطر، وراء البيت الرمادي حيث كانت الصغيرة "أسونسيون" نائمة. يا لصغيرتي "أسونسيون"! وأمامي كان البحر يدفع بزبده الباهت إلى قدميّ.

تطلعت بعيدا إلى الخارج طوال الليل، وفكّرت في نفسي كيف يكون الموت، وماذا ينبغي أن يحدث ما بعد الموت: بعيدا هناك، في الجانب الآخر، ظلام زبد باهت لا نهائي. هل يكفي مجرّد أن تبعث فكرة أو ملاحظة حتى تستمر في الحركة منساقة باضطرار مشوّش إلى الأبد؟

الثامن من أكتوبر:

سأشكر الموت حين يأتي لأنّ الوقت أزف سريعا لدرجة أنه لم يعد هناك مدعاة للانتظار. ثلاثة أيام خريفية قصيرة، وينتهي كلّ شيء. لا أستطيع الانتظار حتى اللحظة الأخيرة، تلك اللحظة الأخيرة جدا! ألا ينبغي أن تكون لحظة مرح ومتعة لا يمكن التعبير عنها، أعلى لحظة وجد؟ ثلاثة أيام خريفية قصيرة، ويدخل الموت إلى غرفتي. كيف سيتصرف؟ هل سيعاملني كدودة؟ هل سيمسك بي من حلقي ويخنقني؟ أم سينشب يده في ذهني؟ لكني أفكّر فيه كعظيم وجميل من جلال غريب!

التاسع من أكتوبر:

قلت لـ"أسونسيون"، وهي جالسة فوق ركبتي:

– ماذا ستقولين إذا تحتم عليّ أن أتركك بشكل ما؟ هل تحزنين كثيرا؟

أنامت يدها فوق صدري، وانتحبت بمرارة. غصّ حلقي بالألم. لديّ حمّى أيضا. كان رأسي ساخنا وأرتعش من البرد.

العاشر من أكتوبر:

جاء إليّ، الليلة الماضية جاء إليّ! لم أره ولم أسمعه وحتى لم أتكلم معه. إنه أمر غبي، لكنني تصرّفت بغرابة!

قال:

– أظنّ أنّ علينا أن نركّز تفكيرنا عليه فورا!

لكني لم أكن أريد ذلك، فحاربته، وأرسلته بعيدا.



تردد صوته ثانية:

- أظنّ أنّ من الأفضل أن نركّز تفكيرنا عليه فورا!

إنّه صوته. مضى عبري تماما، بوقار شديد، شديد الضجر، شديد المحافظة! لم أعرف أبدا شعورا أبرد منه، أكثر امتهانا من خيبة أمل.

الحادي عشر من أكتوبر:

هل أفهم؟ أوه ! إنني أفهم. بينما كنت جالسا في غرفتي منذ ساعة ونصف الساعة، جاء إليّ العجوز "فرانز"، كان يرتعش وينتحب، صائحا:

- الآنسة الصغيرة! الطفلة! تعال بسرعة.

مضيت مسرعا. لم أبك، فقط هزّني رعب بارد. كانت مستلقية في فراشها يحيط شعرها الأسود بوجهها الصغير المعذب الشاحب. ركعت إلى جوارها غير قادر على التفكير أو الحركة.

جاء الطبيب "جيدهيس"، وبعد أن فحصها قال:

- أزمة قلبية!

وأومأ كما لو أنّه لم يكن متفاجئا. كان هذا الرجل الأخرق، هذا الغبي يمثل كما لو أنه تنبأ بذلك!

لكن مع ذلك، هل فهمت؟ أوه ، حين أصبحت وحيدا معها، بينما كان المطر يهطل في الخارج، وزئير البحر يرتفع، ويتردد هبوب الرياح في مدخنة الموقد، أسقطت يدي على المائدة: فجأة بدا الأمر شديد الوضوح! لمدة

عشرين عاما كنت أتوقع الموت في اليوم الذي سيبدأ بعد ساعة، لكن عميقا بداخلي، كان هناك شيء ما قد عرف سرا أنني لن أستطيع أن أترك تلك الطفلة. لم أكن قادرا على الموت بعد منتصف الليل، وهو ما كان يجب! كان ينبغي أن أبعد الموت عندما يأتي. لكنه ذهب إلى الطفلة أوّلا، لأنّه كان ينبغي عليه أن يطيع معرفتي واعتقادي. لكن هل أحضرت، أنا بنفسي، الموت إلى سريرك الصغير؟ هل قتلتك، يا صغيرتي "أسونسيون"؟ أوه ، أهذه كلمات خرقاء باهتة لمثل تلك الأشياء الرقيقة الغامضة؟

وداعا! وداعا! ربّما سأجد هناك ثانية فكرة أو شعورا بعيدا عنك. انظري، إن عقرب الدقائق يتحرّك، والمصباح الذي يضيء وجهك الحلو الصغير سرعان ما يخبو نوره. أمسك يدك الصغيرة الباردة، وأنتظر. الآن، سيقترب منّي في أيّة لحظة، وسأومئ فقط وأغمض عيني حين أسمعه يقول:

– من الأفضل أن نحلّها الآن.

للنرويجي: بجورنستجرن بجورنسون



الأب

كان الرجل، الذي تحكى قصته هنا، هو الشخص الأكثر ثراء ونفوذا في الأبرشية، كان اسمه "ثورد". ظهر ذات يوم في صومعة الكاهن جادا بجرمه الطويل. قال:

- لقد وهبت ابنا.

ثم استطرد:

- وأودّ أن أقدّمه للتعميد.

- ماذا سيكون اسمه؟

- "فين"، .. على اسم والدي.

- والعرّابون؟

ذكرهم الأب، ثبت أنّهم أفضل الرجال والنساء بين الرعية.

تساءل الكاهن، وقد صعّد بصره إليه:

- هل هناك أيّ شيء آخر؟

تردد الفلاح قليلا. وأخيرا قال:

- أودّ كثيرا أن يكون تعميده وحده.

- وهو ما يتطلب تحديد أيّ يوم من أيام الأسبوع.

- السبت التالي، في تمام الثانية عشرة ظهرا.

تساءل الكاهن:

- هل هناك أيّ شيء آخر؟

- ليس ثمة شيء آخر.

أدار الفلاح قبعته، كما لو كان على وشك الانصراف.

عندئذ نهض الكاهن قائلا:

- مع ذلك مازال هناك شيء .

ثم مشى باتجاه ثورد، وتناول يده، ونظر بأسى إلى عينيه:

- لقد منحك الله ذلك الطفل، ليصبح بركة لك!

ذات يوم، بعد ستّة عشر عاما، وقف "ثورد" مرّة أخرى في صومعة الكاهن، الذي قال:

- لا تظهر عليك بشكل مثير للدهشة بوادر التقدّم في العمر حقا يا "ثورد".

قال الكاهن ذلك، لأنه لم ير أي تغيّر في الرجل. أجاب "ثورد":

- ذلك، لأنه ليست لديّ مشاكل.

لم يقل الكاهن أيّ شيء إزاء ذلك، لكنه تساءل بعد وهلة:

- ما الذي أسعدنا بحضورك هذا المساء؟

- لقد جئت هذا المساء بخصوص تثبيت ذلك الابن من صلبي غدا.

- إنه فتى نابه.

- لا أرغب في أن أدفع للقسّ حتى أسمع الرقم الذي سيعطى له، حين يأخذ مكانه في الكنيسة غدا.

- سيكون رقم واحد.

- هو ما سمعت، وها هي عشرة دولارات للقسّ.

- هل هناك أيّ شيء آخر يمكنني أن أؤديه لك؟

تساءل الكاهن مثبتا عينيه على "ثورد".

- لا يوجد شيء آخر.

انصرف "ثورد".

انقضت ثماني سنوات أخرى، وذات يوم سمعت ضوضاء خارج صومعة الكاهن، لأنّ عددا من الرجال كانوا يقتربون، وعلى رأسهم "ثورد"، الذي دخل أولا.

صعّد الكاهن نظراته إليه، وتعرّف عليه. قال:

- مرحبا بحضورك هذا المساء، يا "ثورد".

- إنني هنا، كي ينشر إعلان عن زواج ابني. إنّه على وشك أن يتزوّج "كارين ستدرليدين"، ابنة السيد "جودموند"، الذي يقف إلى جواري.

- آه ، إنّها أغنى فتاة في الرعية.

أجاب الفلاح، ممسّدا شعره بيده للوراء:

- هكذا يقال.

جلس الكاهن لوهلة، كأنّه غارق في تفكير عميق، ثم سجّل الأسماء في دفتره، دون الإدلاء بأيّة تعليقات، ووقع الرجال بتوقيعاتهم تحت أسمائهم، ووضع "ثورد" ثلاثة دولارات على المائدة.

قال الكاهن:

- واحد يكفي، كما أعتقد.

- أعرف ذلك جيدا، لكنه ولدي الوحيد، وأريد أن أقوم بالأمر بشكل ملائم.

أخذ الكاهن النقود:

- هذه هي المرّة الثالثة الآن، يا "ثورد"، التي تجيء هنا فيها من أجل ابنك.

- لكنني فرغت منه الآن.

قال "ثورد" ذلك، مغلقا محفظته، وملقيا تحية الوداع، ومشى بعيدا.

تبعه الرجال ببطء.

ذات يوم هادئ ساكن، بعد ذلك بأسبوعين، كان الأب وابنه يجدّفان عند البحيرة، لإجراء ترتيبات العرس.

- إنّ مقعد المجدّف هذا غير آمن.

قال الابن ذلك، وهو ينهض كي يعدّل المقعد الذي يجلس عليه.

انزلق لوح خشب من تحته في نفس اللحظة، الذي كان يقف عليه، ففرد ذراعيه، مطلقا صرخة، وسقط من فوق جانب المركب.

- تشبث بالمجداف!

صاح الأب، قافزا على قدميه، مقدّما المجداف.

لكن بعد أن بذل الابن عدّة محاولات، أصبح تدريجيا متيبّسا.

- انتظر لحظة!

بكى الأب، وبدأ يجدف باتجاه ابنه. عندئذ انقلب الابن على ظهره، وهو يمنح أباه نظرة واحدة طويلة، وغاص.

أمكن لـ"ثورد" بشقّ الأنفس أن يصدّق ما حدث، أبقى القارب ساكنا، وحلق إلى النقطة التي غاص فيها الابن، كما لو أنه سيصعد بالتأكيد إلى السطح مرّة أخرى. هناك ارتفعت بعض فقاعات، ثم فقاعات أخرى، وأخيرا فقاعة واحدة كبيرة سرعان ما انفجرت، وظلت البحيرة هناك ثانية ناعمة وزاهية كمرآة.

شاهد الناس "ثورد"، وهو يجدّف حول نفس البقعة، ثلاثة أيام وثلاث ليال، دون أن يتناول أيّ طعام، أو ينال أيّ قسط من نوم. راح يمسح البحيرة من أجل جثمان ابنه. وقد وجده قرب صباح اليوم الثالث، فحمله بين ذراعيه عبر التلال إلى مزرعته.

ربّما مرّ ما يقرب من عام منذ ذلك اليوم، حين سمع الكاهن، في وقت متأخر ذات مساء خريفي، صوت شخص ما في الممر خارج الباب، يحاول العثور على المزلاج. فتح الكاهن الباب، فدخل رجل طويل، نحيف، محنيّ القامة، أبيض الشعر. أمعن الكاهن النظر إليه طويلا قبل أن يتعرّف عليه. لقد كان "ثورد":

- **هل تتمشّى إلى مثل هذا الوقت المتأخّر؟**

تساءل الكاهن، واستقرّ ساكنا أمامه:

- **أوه، نعم! إنّه وقت متأخر.**

قال ثورد، وهو يتخذ مجلسا.

جلس الكاهن أيضا، كمن ينتظر. تبع ذلك صمت طويل. أخيرا قال "ثورد":

- **لديّ شيء أودّ أن أقدّمه إلى الفقراء، وأريد أن يستثمر كوصية على روح ابني.**

نهض، ووضع بعض المال على المائدة، وجلس ثانية. أحصى الكاهن المال، وقال:

- **إنه مبلغ كبير من المال.**

- **إنّه نصف ثمن مزرعتي. لقد بعتها اليوم.**

جلس الكاهن طويلا في صمت. أخيرا، سأل لكن بلطف:

- **ماذا تعتزم أن تفعل الآن، يا "ثورد"؟**



- شيء أفضل.

جلسا هناك بعض الوقت، "ثورد" منكس العينين، والكاهن بعينين مثبتتين على "ثورد". ثم قال الكاهن ببطء وهدوء:

- أعتقد أن ابنك قد جلب لك أخيرا بركة حقيقية .

- نعم، أنا نفسي أعتقد ذلك .

قال "ثورد"، رافعا بصره، بينما انسابت دمعتان على وجنتيه.

للروسي: آنطون تشيكوف

العنبر رقم 6

(1)

كان هناك مستشفى مجانين بمدينة روسية نائية تقع على بعد مائتي فرسخ من خط سكة حديدية. يطلّ فناؤها على غابة محدودة من شجيرات ونجيل، حيث يقع مبنى صغير يفصله عن المستشفى سور رمادي تعتليه مسامير مقلوبة لأعلى مثل كلّ أسوار السجون والمستشفيات في روسيا. بجوار المبنى حقل يقيم فيه الحارس "نيكيتا" الذي كان مؤمنا أشدّ الإيمان بضرورة استخدام الضرب مع المجانين حتى يستتب النظام.

عدد المجانين خمسة يرتدون معاطف زرقاء وطواقي، يعيشون في غرفة داخلية يطلق عليها العنبر رقم 6، حيث الأسرَّة مثبتة في الأرض. يجلس أولهم من ناحية الباب ناظرا إلى نقطة ثابتة. يأكل ويشرب بطريقة آلية عندما يقدّم إليه الطعام، ويدلّ سعاله الحاد ونحافته على أنه مسلول.

يجلس بعده عجوز يتمتع بحيوية شديدة رغم ضآلة جسمه، يدعى اليهودي "موسيكا" الذي جنّ منذ عشرين عاما عندما احترقت ورشته الصغيرة لصناعة الطواقي. وهو بطبيعته من النوع المرح، والوحيد أيضا المسموح له بالخروج من المبنى بل ومن المستشفى والتجوّل في المدينة بعد أن اعتاد أهلها على وجوده وسط مجموعة من الأطفال والكلاب وراحوا يعطفون عليه، لكن الحارس "نيكيتا" كان يترصده عند عودته مستوليا على

كلّ ما يحمله وهو يضربه ضربا شديدا. كان اليهودي "موسيكا" يجاور "إيڤان ديمترتش" من ناحية اليسار، ومن ناحية اليمين فلاح سمين، فقد منذ زمن بعيد كلّ مقدرة على التفكير. الغريب في أمره أنه حين كان الحارس "نيكيتا" يضربه بكل قوة وهو ينظف تحته وحوله لم يكن يتأثر على الإطلاق بل يتأرجح كالبرميل تحت وطأة الضربات.

رابع النزلاء رجل كان يشتغل بالتصنيف بالبريد ، يتحرّك كما لو كان يخفي سرا، ويخفي أشياء تحت الوسادة وتحت المرتبة لا خوفا من سرقتها بل خجلا. أما عالمه الوهمي فيدور حول تلقي أوسمة من الدولة بطريقة استثنائية، وهو يعيد ويزيد على الآخرين نفس الأخبار الموهومة.

و"موسيكا" طيّب مع الآخرين، فهو يطعم جاره المشلول بالملعقة، لكنه يفعل ذلك مقلدا جاره الآخر من ناحية اليمين، النزيل الخامس، "إيڤان ديمترتش جروموف"، الذي كان نبيل الأصل في الثالثة والثلاثين. عمل من قبل سكرتيرا في المحافظة، وهو يعاني من خوف مقيم بأنّه مطلوب القبض عليه. لكنه خدوم مع الجميع باستثناء "نيكيتا"، وحين يتكلم تستطيع أن ترى فيه المجنون والإنسان معا.

(2)

منذ خمسة عشر عاما كان الأب "جروموف" موظفا جادا محترما، يسكن في منزله الخاص بالشارع الرئيسي بالمدينة، له ولدان: أصغرهما "إيڤان" وأكبرهما "سرجيي" الذي مرض بسلّ حاد وهو في السنة الرابعة بالجامعة ومات، فكان موته بداية سلسلة من المصائب سقطت على أسرة

"جروموف"؛ إذ بعد أسبوع قبض على أبيه العجوز بتهمة تزوير واختلاس، وسرعان ما مات في السجن إثر إصابته بمرض التيفود، وبيع المنزل والمنقولات بالمزاد، وأصبح "إيفان" وأمّه بدون دخل وهو ما اضطره وهو يدرس بجامعة بطرسبرج أن يعطي دروسا طوال يومه مقابل دخل زهيد كان يرسله إلى أمّه. ولم يحتمل ذلك الوضع طويلا خاصة بعد أن ساءت صحته فترك الجامعة ورجع إلى مدينته حيث عمل مدرسا لكنه فشل في التواصل مع زملائه أو تلاميذه فهجر التدريس وعمل (محضرا) لفترة حتى طرد منه بسبب المرض. ونظرا لسرعة غضبه وصراحته في المعاملة لم يستطع أن يكوّن أصدقاء. لكنه كان مثقفا قرأ كثيرا من الكتب، دون أن يهضم كثيرا ممّا قرأ.

كان ، إذًا، ذا طبع حاد يرى أحوال الناس باللونين الأبيض والأسود فقط، ورغم ذلك كان محبوبا في المدينة، نظرا لرقته الموروثة وصدقه في التعامل وأخلاقه العالية، فكان سكانها يدللونه بـ"فانيا".

(3)

في صباح أحد أيام الخريف كان في طريقه ليحصّل أحد إيصالات المحكمة، حين شاهد سجينين مقيّدين في حراسة أربعة من رجال الشرطة المسلحين، فداهمه إحساس مبهم بالذنب وأنه من الممكن أن يقيّد ويقاد مثل هذين السجينين. وبدءا منذ تلك اللحظة بدأت علاقته مع رجال الشرطة يحوطها نوع من الشكّ والخوف، وداخله ظنّ رهيب بأنّه من الممكن أن يرتكب ذنبا دون قصد وبالصدفة يكون مآله السجن. وراوده ظنّ غامض بأنّ أفكار الأمس مادامت تطارده فلاشك أنّ فيها شيئا من

الحقيقة، فصار "إيڤان" يتعذب ليل نهار، وأصبح ينتفض عند سماع جرس الباب، أو إذا رأى زائرًا غريبًا بالبيت، حتى غدا يحبّ الوحدة ويتجنب الناس، وأصبح يكره الوظيفة. وهكذا فقد تدريجيًا كلّ اهتمام بالعالم الخارجي وتلاشى اهتمامه بالكتب، وبدأ الضعف ينتاب ذاكرته.

وفي ربيع ذلك العام حين ذاب الثلج وجرى اكتشاف جثتين لعجوز وطفل عليهما آثار ترجّح أن الوفاة لم تكن طبيعية، وصارت حكايتهما حديث المدينة، انصرف همّه في البداية إلى إبعاد الشبهة عنه، ثم فضّل أن يختبئ في مخزن المنزل بالبدروم لمدّة ليلتين حتى تجمدت أطرافه من البرد. وعند الفجر حضر عمال إلى البيت لإصلاح فرن المطبخ، فظنّ أنهم من رجال الشرطة فداخله رعب رهيب، واندفع هاربا وسط دهشة الجميع فطاردته الكلاب وصرخ رجل في أثره فطارده الجميع حتى قبضوا عليه وحين حضر الطبيب "أندريه يفيمتش" وصف له كمادات على الرأس ومحلولا مهدئا، وشخّص حالته بالجنون، ولمّا لم يكن هناك من يرعاه أدخله إلى العنبر رقم 6 بالمستشفى.

(4)

تتلخص الحياة في العنبر في التوجّه صباحا إلى الفناء الداخلي للاغتسال في برميل مياه ما عدا المشلول والفلاح السمين، ثم يحضر "نيكيتا" لهم الشاي في كيزان من الصفيح.

أما زوّار العنبر فهم قلة، وكلّ شهرين تتكرر زيارة الحلاق "سيمون لازاريتش" يساعده "نيكيتا" على أداء عمله.



الجديد الذي طرأ على العنبر هو انتشار إشاعة غريبة بأنّ الطبيب أصبح يزور العنبر رقم 6.

(5)

الدكتور "أندريه يفيمتش راجين" رجل غير عادي. يحكى عنه أنه كان في مطلع شبابه شديد التديّن، بل كان يعدّ نفسه ليصبح رجل دين. وحين قرر أن يدرس في الأكاديمية الدينية هزأ به أبوه الطبيب الجراح، وهدده بالتبرؤ منه إذا أصبح قسيسا. المهم أنه أنهى دراسته في كليّة الطب، ولم يتشبه في أيّ يوم برجال الدين، بل إن هيئته كان فيها تناقض بين مظهره الذي يوحي بأنّه فلاح جلف ذو قبضات ضخمة تكفي ضربة منها لإنهاء حياة المضروب، وبين خطواته الهادئة. ومن ناحية أخرى لم يكن ملبسه يشبه لباس طبيب، فهو يستقبل المرضى ويأكل ويقوم بزياراته بنفس الرداء، ولم يكن ذلك لكونه بخيلا بل يرجع أساسا لعدم اهتمامه بمظهره الخارجي. وعندما جاء لاستلام عمله كطبيب للمستشفى عمل بجدّ فكان يستقبل المرضى منذ الصباح حتى الغداء، ثم اكتشف أن أعدادهم تتزايد كلّ يوم، وبمرور الأيام سأم العمل لرتابته وعدم جدواه، خاصة بعد أن أكتشف أنّ الحالة شديدة التدهور وأنّ العاملين يستغلون المستشفى ويسرقون كلّ شيء، ورغم أنه طلب من عمال المستشفى عدم المبيت في العنابر، الا أنّه ترك بقية العاملين في أماكنهم. وإذا ما اشتكى له أحد المرضى من أحد العاملين يخبره بأنه سينظر في الأمر، لكنه في الحقيقة كان يستحيل عليه أن يأمر أيًا من العاملين بالكفّ عمّا يفعل لضعف إيمانه بأنّه على حقّ.

وكان رأيه إن أفضل ما يمكن عمله هو إطلاق سراح المرضى، وإغلاق المستشفى. لكنه سرعان ما أيقن أن الأمر لا يتعلق بإرادته الشخصية فقط فسرعان ما سينقل إلى مكان آخر، لذلك لابد من الانتظار حتى يتطهّر كلّ شيء من تلقاء نفسه.

هكذا أصبحت نظرته تتسم باللامبالاة.

(6)

التمرجي "سرجيي سرجيتش"، هو مساعد الطبيب "أندريه يفيمتش". يرتدي عادة رباط عنق أبيض ويعتبر نفسه أكثر علما من الطبيب الذي لا عملاء له. يتزاحم المرضى حول الطبيب والوقت محدود فيتحول الكشف إلى مجرد أسئلة سريعة ثم تصرف بعض الأدوية المتوفرة. أسئلة الطبيب تتم بشكل آلي وهو مستغرق في تأملاته. كما أنه لم يعد يقوم بأيّ جراحات في فترة الاستقبال فقد أصبح منظر الدم يثيره. وسرعان ما يصيبه الضجر من تكرار نفس الأسئلة فيترك المستشفى بعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى تاركا أمر استقبال بقية المرضى للتمرجي.

عندما يعود الطبيب إلى منزله يمضي مباشرة إلى غرفة مكتبه حيث ينهمك فورا في القراءة، فهو يقضي معظم وقته في القراءة ببطء وتعمّق متلذذا، وينفق نصف مرتبه على شراء الكتب، وكانت "داريوشكا" تسهر على راحته وتوفر له البيرة المثلجة عندما يحتاجها.

يزوره في المساء مدير مكتب البريد "ميخائيل أفريانتش"، الذي كان ثريّا ثم أفلس واضطرته الحاجة إلى العمل في مكتب البريد، وكان هو

الوحيد الذي يرتاح إليه الطبيب في المدينة لطباعه النبيلة وصوته اللطيف. وهناك يتناولان البيرة ويتحاوران. يتحدث الطبيب حول أهمية العقل الإنساني في التمتع بالحياة، بينما يدور حديث "ميخائيل" عن الحياة في الماضي حيث انتشرت القيم النبيلة ومفاهيم الشرف والصداقة، ثم ينتقل إلى مغامراته الخاصة لكن الطبيب لم يكن ينصت إليه لأنه كان مشغولا بتجربة حياته الخاصة وكيف اضطره أبوه إلى الالتحاق بكلية الطبّ، وأنّه لو لم ينصع لأمره لأصبح الآن في قلب الحياة الفكرية. ثم يبلور رؤيته حول الحياة بأنّها مصيدة غبية، يشعر الإنسان بوقوعه فيها حين يصل إلى الرجولة والمعرفة الحقة فيسعى إلى البحث عن معنى وهدف وجوده، ورغم أنه يحاول إلا أن محاولاته تظلّ دون جدوى، حتى يداهمه الموت دون ارادته.

وبعد التاسعة ينهض "ميخائيل افريانتس" متنهدا أسفا بأنّ المقادير قد حكمت عليهما بالنفي في تلك المدينة، وأن الموت سيلحق بهما هنا.

(7)

يستمر "إيڤان" في القراءة بعد انصراف صاحبه. كان الكتاب هو أنيسه الوحيد، فمعه تصفو نفسه ويهيم في عالم آخر ، سعيدا أمام ومضات العقل البشري التي يقرأ عنها، فيلقي نظرة على ماضيه وحاضره، لكنه ينفر من الماضي ومن الحاضر وذلك لأنه يعي أنه في ذات اللحظة يوجد أناس يعانون، وأن المستشفى مازالت على حالها مؤسسة ضارة بالصحة، و"نيكيتا" مازال يضرب مرضى العنبر رقم 6 ، وعلى الرغم من التطوّر

العظيم الذي اجتاح مختلف فروع الطب، فسيظلّ هذا المستشفى موجودا في هذه المدينة النائية التي تقع على بعد مائتي فرسخ من خط السكة الحديدية، حيث يعتقد أهلها أنّ الطبيب كاهن لابد من الثقة به. وينتهي به التساؤل عن جدوى تلك الاكتشافات والتطورات مادامت نسبة المرض والوفاة لم تتغيّر ليصل إلى الشكّ في جدوى عمله وبأنه لا يستحق راتبه وينتهي إلى أنه ليس مذنبا فالذنب ذنب العصر ؛ لأنّ كلّ الموظفين يقومون بأعمال غير مفيدة ويحصلون على رواتبهم رغم ذلك.

(8)

قرر مجلس المحافظة دعم الخدمات الطبية بالمدينة بمنحها ثلاثمائة روبل سنويا لحين بناء مستشفى جديد، وعيّن طبيبا جديدا هو "يفجيني فيودرتش خوبوتوف" لمعاونة "أندريه يفيمتش".

كان "يفجيني" شابا أسمر طويل القامة، جاء إلى المدينة مفلسا برفقة امرأة شابة غير جميلة قال إنها طاهيته. سرعان ما تفاهم مع كبير الممرضين "سرجيي سرجيتش" ومع أمين المخزن، وتجنب بقية الموظفين. وكان بيته يحتوي على كتاب واحد فقط، هو "أحدث روشتات مصحة ڤيينا لعام 1881" ظلّ برفقته خلال زياراته للمرضى.

كان يعمل يومين في الأسبوع فيمرّ على العنابر ويكشف على المرضى، وكان يثيره عدم وجود مضادات للتلوث، لكنه لم يغيّر أيّ شيء من النظام الحالي حتى لا يحرج زميله الذي كان يحسده سرّا.

(9)

أثناء خروج الطبيب "أندريه يفيمتش" لتوصيل صاحبه رجل البريد، كان "موسيكا" راجعا من رحلته اليومية فتسوّل كوبيكا من الطبيب، فمنحه قطعة من ذات العشرة كوبيكات، وبشعور من العطف والشفقة تبعه وطلب من "نيكيتا" أن يمنحه حذاء جديدا. كان باب العنبر في تلك اللحظة مفتوحا، ورآه "إيڤان ديمترتش" وارتفع صوته صارخا معلنا مجيء الدكتور، ثم ثار ثورة هائجة وهو يصرخ ناعتا إياه باللص والمخادع والقاتل، فطلب منه الطبيب أن يهدّئ نفسه، ثم سأله عن سبب غضبه منه، فسأله بدوره عن سبب حبسه، فأجابه الطبيب "لأنك مريض"، فعقب إيڤان معترفا بمرضه، ثم أضاف أنّ هناك عشرات بل مئات من المجانين يتجوّلون طلقاء، فلماذا يسجنون هم بينما الآخرون طلقاء؟ فأخبره الطبيب بأنّ مرجع كلّ شيء إلى الصدفة البحتة ولا شيء سواها. فلما طالبه ثانية بإخراجه من المستشفى، رفض الطبيب لأنه لا يستطيع وأنه لو خرج سيمسك به الناس أو رجال الشرطة ويعيدونه ثانية. ثم استطرد بأنه لا يستطيع أن يهزم المجتمع الذي يحمي نفسه. لكن سيجيء وقت لن توجد فيه سجون ولا مستشفيات مجانين. وحين نهض "إيڤان ديمترتش" مهللا عقب الطبيب بأنّ مضمون الأشياء لن يتغيّر وسيظلّ الإنسان يمرض ويهرم ويموت، فاعترض "إيڤان" بأنّ هناك الأبدية. وحين عرف الطبيب بايمانه وأنه يفكر بعمق امتدح كونه مفكّرا لأنه يمكنه أن يجد الهدوء داخل ذاته. وتبادلا حديثا شيّقا. وقبل أن يغادر طلب الطبيب من "نيكيتا" أن ينظف المكان فالرائحة لا تحتمل!

انصرف الطبيب إلى حجرته ممتدحا "إيڤان" لكونه أول من أمكن التحدث معه ممن قابلهم طوال مدّة خدمته في المستشفى. وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي كان مازال سعيدا!

(10)

زار الطبيب "أندريه يفميتش" النزيل "إيڤان ديمترتش" بالعنبر رقم 6 فوجده راقدا بنفس الوضعية التي تركه عليها بالليلة الماضية، رافضا أن يتحدّث معه لأنّه عرف أنّه جاء كي يتجسس عليه، فحاججه الطبيب بأنّ الأمر لن يكون أسوأ لو قبضوا عليه وحاكموه وانتهى أمره إلى السجن أو النفي إلى سيبيريا، **"هل سيكون ذلك أسوأ من هذا المكان؟"**

أثرت كلمات الطبيب في "إيڤان" فجلس بهدوء، ودار بينهما حوار فرّق فيه الطبيب بين الإنسان العادي الذي يتوقع الخير والشر من خارج ذاته، والإنسان المفكّر الذي يجد كلّ شيء داخل ذاته، واسترشد الطبيب ببعض كلمات مشهورة، لكن "إيڤان" اعترض غاضبا بأنّ نسيج الجسم لابد أن يتفاعل مع المؤثرات الخارجية، وبأنه حين يشعر بالألم يصرخ، وهو يرى بأنّ تلك هي الحياة. وأشار إلى زميله الفلاح السمين معقبا بأنه عندما يفقد الإحساس بالألم يكون في حكم الميت.

لكن الطبيب حاوره مسترشدا بتعاليم الفلاسفة، فباغته "إيڤان" بسؤال عمّا إذا كان قد قاسى الآلام قبلا؟ وهل عنده فكرة عن العذاب؟ وهل كانوا يضربونه صغيرا؟. وحين أجاب الطبيب نافيا، ردّ النزيل بأنّ أباه كان يضربه بقسوة، ثم حوّل دفة الحديث إلى الطبيب، بأنه نشأ تحت رعاية والده

وتعلم على نفقته، ثم حصل على وظيفة يعمل فيها وفق ما يهوى، وعاش أكثر من عشرين عاما في مسكن حكومي مجاني، وترك العمل لبقية المرضين، ونعم هو بالهدوء ليقرأ ويتلذذ بالتفكير العميق. لينتهي قائلا بحسم بأنه لم ير الحياة ولم يعرفها بتاتا، وكلّ معلوماته عن الواقع نظرية.

(11)

توطدت العلاقة تدريجيا بين الطبيب "إيڤان ديمترتش" والنزيل "أندريه يفيمتش"، بعد أن تحوّل الخوف والشكّ من الطبيب إلى تعوّد بمضي الوقت، وحدث بناء على ذلك تغيّر في حياة الطبيب فأهمل عمله في المستشفى، ولم تتوقف الزيارات فقط عند الأمسيات بل امتدت إلى فترات من الصباح وبعد الغداء وأحيانا كانت تمتد إلى المساء.

وتصادف ذات مرة حين توجّه الطبيب الجديد "خوبوتوف" إلى حجرة الطبيب ولم يجده فبحث عنه فأخبروه بأنه في العنبر رقم 6، فذهب إليه وحين رأى الطبيب يجلس مجاورا للنزيل "أندريه يفيمتش" على السرير وهما مندمجان في الحوار، أنصت متابعا إعلان النزيل رفضه الاقتناع بمعتقداته، ونفى الطبيب بأنّ ذلك ليس هو المهم بل المهمّ أنّهما وجد كلّ منهما في الآخر إنسانا قادرا على التفكير والمناقشة، وهو ما يجعلهما متضامنين مهما اختلفت وجهات نظرهما. وفي اليوم التالي رافق "خوبوتوف" كبير المرضين إلى المبنى الصغير وراحا يسترقان السمع، وخلال انصرافهما أعلن "خوبوتوف" احتمال جنون الطبيب فعقب كبير المرضين، بأنّ ذلك كان متوقعا منذ وقت طويل!

(12)

لاحظ الطبيب "أندريه يفيمتش" أنّه عندما كان يقابل عمال وممرضات المستشفى كانوا يتطلعون إليه وفي عيونهم نظرات تساؤل، تتبعها همسات غريبة. كما نصحه صاحبه "ميخائيل أفريانتش" كرجل مهذب نصائح غير مباشرة حول ترك المشروبات الروحية. وفي أغسطس وصلته رسالة من عمدة المدينة يرجوه فيه الحضور إلى مقر مجلس المدينة لأمر هام، وهناك وجد الطبيب "خوبوتوف" وطبيبًا يعمل في مصنع في المدينة كان موجودا بالصدفة، إضافة إلى قائد وحدة الجيش، وناظر مدرسة المدينة، وأحد أعضاء مجلس المدينة. وجرت المقابلة. ولما انصرف "إيڤان" من مقر المجلس اكتشف أن ذلك كان "كونسلتو" لاختبار قواه العقلية، فاحمرّ وجهه. وفي نفس اليوم زاره صاحبه رجل البريد ودعاه إلى السفر معه كصديق لاستنشاق هواء جديد. ورغم أنه فكّر في أن ذلك قد يغيّر مجرى حياته الذي استمرّ دون تغيير لمدّة عشرين عاما، إلا أنه وافق على فكرته.

(13)

لم يمض أسبوع إلا وكانوا قد طلبوا من "أندريه يفيمتش" بشكل مقنّع أن يستقيل، فلم يهتم، وسافر بعد ذلك مع صاحبه "ميخائيل أفريانتس" إلى موسكو في عربة بريد أقلتهما أولا إلى محطة القطار حيث سافرا بالدرجة الثالثة لغير المدخنين مع مسافرين محترمين. وخلال هذه الرحلة بدأت تتكشف شخصية صاحبه "ميخائيل" على حقيقتها بعد أن أصبح مصدر إزعاج حقيقي للمسافرين وهو يستعرض ويتعالى عليهم دون وجه حق.

واقترب الإزعاج من "أندريه" نفسه حين راح ميخائيل يتنفس في وجهه ويقهقه في أذنه حتى تساءل "أندريه" عمّن هو المجنون منهما؟

وتفاقم الأمر حين ارتدى "ميخائيل" في موسكو زيّا عسكريا بمعطف وقبعة عسكرية دون رتب ممّا جعل الجنود يحيّونه. واستمرّ مسلسل تصرفاته المتعالية على الآخرين. وزارا هناك الكرملين وبعض المتاحف.

(14)

كان "إيڤان" يودّ أن يتخلص من صحبة "ميخائيل أفريانتش" بعد أن تصاعد الضيق منه، بينما يرى الآخر أن واجبه يحتم عليه مرافقة الطبيب باستمرار. تحمّل "أندريه" الوضع لمدّة يومين، ثم أخبر صاحبه بأنّه مريض ويرغب في أن يقضي اليوم كله في راحة، لكنه لم يتركه وراح يحدثه بحرارة عن فرنسا حتى ملّ "أندريه" منه تماما ولولا حرصه على أن يظلّ إنسانا مهذبا لانفجر فيه طالبا منه الصمت. ولحسن الحظ خرج بعد الغداء في نزهة، عندها اكتشف "أندريه" أنّ السعادة الحقيقية مستحيلة بغير الوحدة.

ادّعى "أندريه" المرض في الأيام التالية، وكم كان غاضبا لموافقته على السفر، نظرا لتفاقم حالة صاحبة الذي صار أكثر ثرثرة وأقلّ تهذيبا. عندئذ فكّر بأنّ ها هو العالم الخارجي يؤثر عليه كما كان يقول "إيفان ديمترتش".

وسافرا إلى "بطرسبرج" حيث اقترض منه صاحبه مبلغا للمقامرة به بعد أن خسر ما كان في حوزته. ثم ارتحلا إلى "وارسو"، وانتهت الرحلة بعودتهما إلى مدينتهما، حيث وجدا "خوبوتوف" يشغل وظيفة "أندريه" وينتظر عودته حتى يأخذ غرفته.

(15)

اضطر "أندريه" إلى أن يستأجر بيتا صغيرا ذا ثلاث نوافذ تملكه سيدة فقيرة تدعى "بيلوفا". يتكوّن البيت من ثلاث غرف شغل الطبيب غرفتين وشغلت داريوشكا والسيدة بأطفالها الثلاثة الحجرة الباقية والمطبخ. كان لـ"بيلوفا" عشيق سكير شرس الطباع، وعندما كان يحضر إلى المطبخ بادئا صياحه طالبا الفودكا يدبّ الذعر إلى الأطفال ممّا يضطر الطبيب إلى أخذهم ليناموا في حجرته سعيدا مسرورا.

كان الطبيب معتادا على نمط معين من حياته استمرّ لمدة عشرين عاما، حيث كان ينهض في الثامنة فيتناول الشاي، ثم يبدأ في قراءة كتبه ومجلاته القديمة ؛ لأنه لم يعد معه نقود لشراء الجديد. ونظرا لكونها قديمة لم تعد القراءة تمتعه، فبدأ يشغل نفسه بتصنيفها بل جعله هذا العمل الآلي لا يفكر في شيء، وهكذا أصبح الوقت يمضي سريعا. كما ساعد داريوشكا في بعض أعمال المطبخ، وبدأ يزور الكنيسة أيام السبت والأحد من كلّ أسبوع. وكان يؤلمه أنه لم يمنح معاشا ثابتا أو حتى مكافأة عن مدّة خدمته. وبينما هو يقرّ في أعماق نفسه بأنه لم يعمل بأمانة فإنه يتمسك بأنّ كلّ الموظفين ينالون معاشا سواء أعملوا بشرف أم بدون شرف.

كما زار المستشفى مرتين لكن "إيفان ديمترتش" كان ثائرا غاضبا ولم يسمح له بالحوار بل ورجاه في المرتين أن يتركه في هدوء ؛ لأنّه لم يعد يستسيغ الثرثرة الفارغة بل أصبح يفضّل السجن الانفرادي.

وبالمقابل كان "خوبوتوف" يزور "إيفان" بانتظام معتبرا أنّ زيارة زميله المريض واجبة بل وكان يعتبر نفسه مسؤولا عن علاجه. كما كان "ميخائيل

إفريانتس" يعتبر أن من واجبه زيارة صديقه للترفيه عنه، فكان الطبيب كي يحرر نفسه من إحساساته التافهة يفكّر أنه هو وخوبوتوف وميخائيل سيموتون جميعا، وسيندثر أثرهم من الكون تماما!

(16)

ذات يوم بعد الغذاء حضر صديقه "ميخائيل" والطبيب "خوبوتوف" في نفس الوقت، وبدأ كل منهما يمارس دوره المألوف ثمّ تطرّق الحديث إلى أنه سيشفى وسيزوجانه، وهو ما أثار "أندريه" ثورة جامحة طردهما على أثرها شرّ طردة، لكنه لم يستطع النوم تلك الليلة خجلا من تصرفاته. لذلك توجّه في الصباح المبكر إلى مكتب البريد واعتذر لصاحبه الذي تأثر تأثرا شديدا، وسرعان ما خفض صوته كمن يخصّه بسرّ بأنّه كصديق يتوسل إليه أن يترك الظروف الصعبة التي يعيش فيها وأن يدخل المستشفى حيث يجد الغذاء الصحي والعلاج، وإزاء صدق مشاعر صاحبه اعترف "أندريه" بأنّ مرضه الوحيد هو أنه لم يجد في المدينة إلا إنسانا واحدا ذكيّا لكنه مجنون، وأنه وقع ببساطة داخل دائرة سحرية مغلقة لا مهرب منها.

وحين طلب منه صاحبه أن يطيع الطبيب "خوبوتوف"، كرر كلماته بأنّه وقع في دائرة سحرية مغلقة ، وأن عطف أصدقائه يؤدي إلى هلاكه، لكنه يمتلك الشجاعة الكافية كي يدرك ذلك.

وقبل المساء زاره الطبيب "خوبوتوف" طالبا منه أن يكوّنا معا "كونسلتو" للكشف على مريض يريده أن يطلع على حالته، فظنّ "أندريه" أن "خوبوتوف" يودّ أن يرفه عنه بالتنزه أو بمنحه فرصة للتكسّب فارتدى

ملابسه وخرج معه مسرورا بأنّ "خوبوتوف" منحه الفرصة لمحو انفعال الأمس والتصالح فشكر له فعله. وحين سأله عن مكان المريض، أخبره بأنه موجود في المستشفى. وبعد أن دخلا عنبر المرضى، طلب منه "خوبوتوف" الانتظار حتى يحضر سماعته، وخرج.

(17)

جلس "أندريه" على سرير "إيفان ديميرتش" منتظرا. وكان المشلول جالسا يبكي في هدوء، أما الفلاح السمين ومصنف البريد السابق فكانا نائمين، ولم يكن "موسيكا" موجودا.

دخل "نيكيتا" حاملا صرة بها معطف وملابس داخلية، توجّه بها إلى الطبيب وأشار إلى سرير مجاور قائلا إنّه سريره ثم طلب منه أن يغيّر ملابسه، ففهم "أندريه يفيمتش" كلّ شيء، وسرعان ما تعرّى مرتديا ملابس المستشفى، فتناول "نيكيتا" الملابس التي خلعها متمنيا له الشفاء، وخرج مغلقا الباب خلفه.

كان "أندريه" حتى هذه اللحظة مؤمنا أنه لا فرق بين منزل "بيلوفا" وبين العنبر رقم 6، وأنّ كلّ شيء على وجه الأرض مصيره إلى زوال. لكن يديه بدأتا في الارتعاش وبردت قدماه فنهض وتمشى في الغرفة ثم جلس واستمرّ جالسا حتى أصابه الملل وساءل نفسه كيف يمكنه أن يمضي في هذا المكان يوما أو أسبوعا أو سنوات مثل أولئك المرضى، فنهض ومسح وجهه موقنا أنّ هناك سوء فهم لابد من إيضاحه. وفي تلك اللحظة استيقظ "إيفان ديمترتش" وسرعان ما أصبح وجهه قاسيا بعد أن فهم أنه موجود

بينهم، فأخبره بأنه مسرور بأنهم جاءوا به أيضا، لكنه أوضح بأنّه مجرّد سوء فهم فردّ عليه بأنّ أكثر ما يحزن أننا لن نكافأ على تحمّل كلّ تلك الآلام، بل سيأتون لحمل جثثنا ويرمون بها في بدروم المستشفى، وهكذا تصبح حياتنا في العالم الآخر عيدا وبأنّه سيعود من هناك كشبح ليخيف أولئك الأنذال.

(18)

تطلع "أندريه" من نافذة العنبر فرأى القمر ساطعا وسط الظلام، وعلى بعد مائة ذراع من سور المستشفى شاهد مبنى السجن الأبيض المرتفع. عندئذ داخله رعب هائل فحاول أن يهدّئ نفسه ؛ لأنّه بمرور الوقت سيتعفن كلّ شيء ويتحوّل إلى تراب، لكن ذلك لم يخفف من اليأس الهائل الذي أحسّ به فراح يهز قضبان النافذة بعنف دون أن تتحرك من مكانها. وفي محاولة للتغلب على الخوف توجّه نحو "إيڤان ديمترتش" وأخبره بأنّه انهار تماما فنصحه "إيڤان" بالتفلسف، فردّ "أندريه" بأنّه كان هادئ النفس سليم التفكير طالما لم تمسّه الحياة القاسية، فما إن مسّته حتى انهارت روحه المعنوية.

أدرك "أندريه" مع هبوط المساء بأنّه بحاجة إلى البيرة والدخان، فاندفع خارجا من العنبر ولكن "نيكيتا" سرعان ما نهض معترضا طريقه رافضا أن يسمح له بالتريّض لأنّ ذلك ممنوع بناء على أوامر يعرفها هو بنفسه، فراح "أندريه" يجادله وسرعان ما اشترك "إيڤان" في الحوار صارخا بأنّ القانون ينصّ صراحة بأنه لا يمكن مصادرة الحريات دون محاكمة!

أغلق "نيكيتا" الباب بالقوة، لكن عندما ارتمى "أندريه" على الباب محاولا تحطيم رأسه، فتح "نيكيتا" الباب بسرعة دافعا "أندريه" بقسوة في

ظهره بكلتا يديه وركبتيه، ثم ضربه بكلّ قوة على وجهه، فارتمى "أندريه" على السرير منتظرا ضربات أخرى، وشعر بآلام رهيبة في أمعائه، عندئذ فكر كيف قاسى هؤلاء الأفراد لمدّة عشرين عاما دون أن يشعر بهم؟ وحاول التماس عذر لنفسه بأنّه لم يعرف الألم ولم يكن عنده أيّ فكرة عنه ؛ لذلك فهو غير مذنب، لكن ضميره كان قلقا.

أصابته ارتعاشة قوية فحاول أن يصرخ بكلّ قوته، فلم يخرج من فمه أيّ صوت، وأحسّ بالاختناق فمزق معطفه وقميصه وسقط مغشيا عليه.

(19)

في صباح اليوم التالي كانت رأسه تؤلمه، ورغم أنه دافع بالأمس عن فكرة تفلسف البسطاء لأنّهم غير راضين، إلا أنه اليوم كان رافضا لكلّ شيء. لم يعد يأكل أو يشرب أو يجيب عن أيّ سؤال يوجّه إليه. ورغم أن الزيارات توالت عليه من "ميخائيل افريانتس" ومن داريوشا" التي وقفت إلى جوار سريره لمدة ربع ساعة، ومن الطبيب "خوبوتوف"، إلا أن روحه فاضت قبيل المساء نتيجة انفجار شرايين المخ. ودفن في اليوم التالي، ولم يحضر جنازته سوى "ميخائيل افريانتس" و"داريوشكا".

للياباني: ريونسكيه أكوتاجاوا

تروس دوّارة

(1) معطف مطر

حملت حقيبتي معي، من منتجع صحّي بعيد نسبيا، إلى محطة سكة حديد خط "توكايدو"، كي أحضر حفل زفاف أحد معارفي. كان مثيرا للشك، إلى حدّ ما، أن ألحق بالقطار المتجه إلى طوكيو في موعده. سافرت بالسيارة عبر طريق على جانبيه أشجار صفصاف فقط. جلس معي في السيارة حلاق، ممتلئ الجسم تماما، مثل خوخة، ذو لحية قصيرة. تحدث معي بشكل متقطع، وأنا مشغول البال بالوقت:

- غريب. لقد سمعت كثيرا، أنّ هناك بيتا مسكونا بشبح يظهر حتى في النهار.
- حتى في النهار؟

تطلعت إلى التلال البعيدة، إلى أشجار الصفصاف المستحمّة في شمس عصر شتائية، متجاوبا معه بإجابات مناسبة.

- ليس في مثل هذا الطقس الطيّب.. سمعت، مع ذلك، أنّه غالبا ما يظهر في الأيام الممطرة.
- يفاجئني أن يجرؤ على الظهور، فقط لمجرّد أن يبتلّ في أيام ممطرة.
- أنا لا أهوّل، أؤكد لك! ... يقولون إنّ الشبح، الذي يقوم بالإزعاج يرتدي معطف مطر.

وصلت السيّارة إلى محطة السكة الحديد، ارتفع صوت أوزة من نفيرها. غادرت الحلاق، ونزلت. تماما كما تخيّلت، كان القطار قد غادر منذ عدّة دقائق فقط. جلس هناك على مقعد في غرفة الانتظار، رجل وحيد في معطف مطر، وهو يحملق أمامه بشكل خال من التعبير. تذكّرت الحكاية، التي سمعتها منذ وهلة، لكنني تركتها تمضي مع ابتسامة خافتة، وقررت أن أمضي إلى مقهى في مواجهة المحطة، انتظارا للقطار التالي.

كان مقهى، يصعب أن يستحقّ اسمه. جلست إلى مائدة في الركن، طلبت قدحا من الكاكاو. كان القماش الزيتي، الذي يغطي المائدة مفرشا قماشيا كبيرا تتقاطع فيه خطوط زرقاء متباعدة على أرضية بيضاء. برز عند كلّ حافة جانب قذر، فعلا. ارتشفت الكاكاو، الذي بدت رائحته مثل صمغ حيواني، وتطلعت حولي في المقهى الخالي. عرض على الحائط القذر عدد من شرائح ورقية توضح قوائم الطعام: **"وعاء بأرز يعلوه بيض ودجاج"**، "شريحة لحم"، وهلما جرا..

- بيض طازج. شريحة لحم.

جعلتني شرائح الورق، أدرك أنني كنت في الريف بعيدا قرب خط "توكايدو". هنا، انطلقت قاطرات كهربية وسط حقول كرنب وقمح...

لحقت القطار التالي، عندما اقترب الوقت من الغروب. رأيت أنّه قد يكون من الأنسب أن أركب بالدرجة الثالثة رغم أنني أسافر عادة بالدرجة الثانية.

كان القطار، مع ذلك، مزدحما. هناك تلميذات مدرسة أولية أمامي وورائي، عائدات من رحلة في "اويزو" أو من مكان آخر. عندما أشعلت سيجارة، نظرت مليا إلى مجموعة التلميذات. كنّ جميعا على وجه العموم في حالة معنوية مرتفعة، يتبادلن الحديث معا:

– هيا أيها المصوّر! ماذا يشبه مشهد حبّ؟

بدا أنّ "المصور" الجالس في مواجهتي، كان مع الرحلة، لكنه حاول أن يتجنب الموضوع. ظلت بنت واحدة من بين أربع عشرة أو خمس عشرة بنتا، توجّه إليه أسئلة. وعندما لاحظت أنّ لها أنفا مصابا، لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام. ثم كانت هناك بنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة جالسة في حضن شابة أكبر منها ممسكة رقبتها بيد، وهي تلاطف وجنتيها باليد الأخرى. استدارت إليها، أثناء تبادل الحديث مع شخص ما، لتقول:

– أنت جميلة. إنّ لك عينين جميلتين، كما تعرفين.

كم صدمتاني كامرأتين بالغتين أكثر منهما طفلتين يانعتين. كان ذلك، نسبيا، بسبب من قضمهما برفق حبّات تفاح وفكّ تغليف كراملة واحدة إثر أخري. .. لكن لابد أنّ التي بدت مثل الأكبر سنا قد داست بلامبالاة على قدم شخص ما أثناء مروره قريبا مني، لأنّها قالت:

– إنني في غاية الأسف.

هي وحدها. بدت مثل شابة، مبكرة النضج أكثر من الأخريات. لم أستطع أن أمنع نفسي من السخرية من وجود أيّ تعارض في هذا.

وصل القطار أخيرا إلى محطة الضاحية، بكل أنواره مضاءة، دون أن أكون معنيًا به. هبطت، وقفت على الرصيف أثناء هبوب رياح باردة، ثم عبرت متغاضيا عنها، وقررت أن أنتظر القطار المحلي. ثم رأيت السيد "تي"، رجل الشركة. سبق أن ناقشنا الاكتئاب، وما شابه أثناء الانتظار. كان السيد "تي" متآلفا مع مثل تلك المشكلة أكثر ممّا كنت، وكان قد ارتدى خاتما فيروزيّ اللون، ليس له أيّة صلة بالاكتئاب.

- أرى أنّ لديك كنزا هناك.

- هذا؟ لقد اشتريته من صديق كان يؤدي عملا في "هاربين". كان لديه صعوبة في الانفصال عنه. لكنه أسفر عن متعاون.

لحسن الحظ، لم يكن قطارنا شديد الازدحام. جلس كلّ منا بجانب الآخر، وتحدثنا حول أمور مختلفة. كان السيد "تي" قد رجع هذا الربيع من مكتب شركته في باريس، فكان ذلك مبررا للحديث عن باريس، قصص حول السيدة "كاليكس"، أطباق سرطان البحر، وأمير معيّن يقوم بجولة سياحية في الخارج...

- ليس الأمر سيّئا في فرنسا، كما نعتقد. ليس الفرنسيون مؤهلين بالطبيعة لدفع ضرائبهم، وهو ما يؤدي غالبا إلى حلّ مجلس الوزراء..

- لكن الفرنك في حالة انهيار .

- هذا ما تقوله أغلب الصحف. سترى بمجرّد أن تكون في باريس أنّه ينظر إلى اليابان كبلد للفيضانات والزلازل، ومنبع لمتاعب أخرى.

جلس، في تلك اللحظة، شخص يرتدي معطف مطر في مواجهتنا. شعرت ببعض من حظ عاثر، وكنت على وشك أن أخبر السيد "تي" عن قصّة الشبح، التي سمعتها في وقت سابق. لكنّه همس، وهو يدير مقبض عصاته إلى اليسار، محافظا على استقامة رأسه:

- هل ترى السيدة التي هناك، ذات الشال الرمادي..

- المرأة ذات تسريحة الشعر الغربية؟

- نعم، المرأة التي تحمل لفّة ملابس تحت ذراعها. لقد كانت في "كاريزاوا" هذا الصيف. شديدة الدلع بأسلوب غربي غريب.

بدت تلك المرأة لأيّ شخص، الآن، في ملابس رثة بالتأكيد. ألقيت نظرة عليها أثناء الحديث مع السيد "تي". كان هناك شيء جنونيّ في وجهها العابس، جعله يشبه الأسفنج فبدت مثل فهد يترصّد فريسة.

- كانت تقضي وقتا عظيما في "كاريزاوا" راقصة مع شاب أمريكي. وهو ما يمكنك أن تسمّيه حداثة..

بمضي الوقت، انصرفنا أنا و"تي"، واختفى الرجل ذو المعطف المطري، دون أن أوليه اهتماما. تمشّيت من المحطة إلى الفندق. لا تزال الحقيبة معي. كانت هناك مبانٍ ضخمة غالبا على جانبي الطريق. فكّرت فجأة، أثناء المشي، في غابات الصفصاف. ثم بدا هناك أيضا شيء غريب في مجال رؤيتي. غريب! كانت هناك تروس نصف شفافة تلفّ وتدور باستمرار. مررت بمثل هذه التجارب سابقا. تزايدت عجلات التروس حتى حجبت أيّ رؤى أخرى. حدث ذلك لوهلة، أو ما قارب ذلك، ثم فتحت الطريق

إلى صداع قادم. كان هو نفس الأمر دائما. غالبا ما أخبرني الطبيب الفاحص، وأنا أحكي له تلك الرؤية المتهوّرة أن أخفف من التدخين. لكن عجلات التروس كانت قد بدأت في الظهور قبل أن أبلغ العشرين، وقبل أن أنخرط في التدخين. حين شعرت أنها بدأت ثانية، أجريت اختبارا بعيني اليسرى مغطيا اليمني. كان الأمر مع العين اليسرى على ما يرام، كما هو متوقّع، لكن من وراء العين اليمنى، حين أغلقتها، ظلت هناك عجلات بلا عدد في الدوران. بدأت السير بصعوبة، بينما كانت المباني إلى اليمين تختفي بالتدريج عن بصري.

عندما وصلت إلى مدخل الفندق، كانت التروس قد اختفت، لكن ليس الصداع. تفحّصت معطفي، وقبعتي، وحجزت غرفة. ثم اتصلت بناشر مجلة معيّنة، وناقشت أمورا مالية معه.

بدا أن حفل استقبال عشاء العروسين قد بدأ فعلا. جلست عند نهاية مائدة، نخست عليها بسكين وشوكة. بدت البهجة على العروس والعريس، وما يقرب من خمسين أو أكثر من الآخرين جالسين على مائدة رئيسية تشكلت على شكل حرف (U). بدأت أشعر باكتئاب أكثر، أكثر تحت الأضواء اللامعة. تبادلت حديثا مع ضيف مجاور لي، في محاولة لإيقاف ذلك الشعور. كان رجلا عجوزا ذا شعيرات بيضاء كأسد. بالإضافة إلى ذلك، كان عالما مشهورا في الكلاسيكيات الصينية، كان اسمه مألوفا لي. وهكذا، انجرف حوارنا دون وعي إلى الكلاسيكيات.

جرى تبادل الحديث بشكل آلي، لكنني شعرت تدريجيا برغبة في أن أكون مدمّرا، وليس فقط مجرّد متظاهر. عند هذه النقطة، لم يستطع عالم



الكلاسيكيات الصينية أن يحتوي انزعاجه، واستدار مبتعدا عنّي كلية، مقاطعا سردي بدمدمة مبهمة مثل نمر.

انتهى الحديث القصير بهذا الشكل. رجعت، مرّة أخرى إلى اللعب بالسكين والشوكة على اللحم أمامي. اكتشفت أنّ هناك مخلوقا دقيقا يتلوى على أحد جوانب اللحم. جلب إلى ذهني الكلمة الإنجليزية "دودة". وضعت السكين والشوكة، وحملقت بدلا من ذلك إلى الشمبانيا، التي صبّت في كأسي.

بعد أن انتهى العشاء، كنت مستعدا تماما أن أغلق على نفسي في حجرتي، التي حجزتها. سرت عبر الممرات الخالية، التي أشعرتني كما لو أنني في سجن، وليس في فندق. لكن لحسن الحظ، تنحى الصداع في نفس الوقت جانبا، دون أن أبالي.

بالإضافة إلى ذلك، كانت كلّ من الحقيبة، قبعتي، معطفي، محفوظة جميعا في الحجرة. كان معطفي معلقا على الحائط باديا في مثل استقامتي تماما، وسرعان ما ألقيت به فورا إلى الدولاب في الركن. ثم، نظرت بإصرار إلى وجهي في مرآة على مائدة الملابس، كشفت عن عظم تحت الجلد. ثم ظهرت الدودة ثانية.

فتحت الباب، رجعت ثانية إلى الممر الخارجي، ومشيت غير متيقن إلى أين يقود. ثم، رأيت مصباحا طويلا بظلّ أخضر، في أحد أركان الممر الذي يقود إلى الردهة، أحدث انعكاسا حادا على باب مصقول. هدّأ ذلك بالي، بشكل أو بآخر. أجلست نفسي على كرسي أمامي، وبدأت أطيل التفكير في

أشياء مختلفة. لكن خمس دقائق كانت كافية لذلك. ثم لاحظت مرّة أخرى على ظهر أريكة مجاورة لي معطف مطر معلقًا بإهمال.

"هذا هو الموسم الأبرد، حتى الآن"

تجوّل ذهني في مثل هذا المزاج، حتى رجعت ثانية إلى الممر. لم يكن هناك أيّ نادل على مرمى البصر في غرفة الندلاء. لكن بعضا من أصداء حديثهم طرقت سمعي. كانت باللغة الإنجليزية: "أنا موافق". "أنا موافق"، في الإجابة على شيء ما؟ حاولت أن أتكهّن عمّا كان يدور الأمر. "أنا موافق؟" "أنا موافق؟" يا الله، ماذا تعني "أنا موافق؟"

كانت غرفتي هادئة، بطبيعة الحال. لكن بمجرّد أن فتحت الباب، ودخلت، بدت لسوء الحظ، سخيفة بما فيه الكفاية. غامرت، أخيرا مع بعض التردد، بالدخول، ثم حريصا على ألاّ أنظر إلى المرآة، جلست على مقعد بجوار مائدة. كان الكرسي ذا ذراعين، أزرق مراكشي يشبه سحلية. فتحت حقيبتي، أخرجت ورقة كتابة، وحاولت أن أستأنف كتابة قصة قصيرة معيّنة. لكن القلم والحبر علقا بنار أبدية، وحين تحرّكا أخيرا، أو ظننت أنهما تحركا، ظهرت فقط نفس كلمات أنا موافق.. أنا موافق.. أنا موافق يا سيدي.. أنا موافق.. أنا موافق.

فجأة رنّ جرس التليفون إلى جوار الفراش. رفعت السماعة منذهلا، وحركتها إلى أذني، لأجيب:

– من المتحدث؟

– إنه أنا. أنا ...

كانت ابنة أختي الكبرى، على الجانب الآخر.

- ماذا؟ ماذا حدث؟

- أجل، حسنا، حدث شيء رهيب. هكذا.. ولأنّ شيئا رهيبا حدث، فقد كلمت خالتي أيضا.

- شيء رهيب؟

- أجل، لذا من فضلك أسرع بالحضور. أسرع.

أغلق التليفون على الجانب الآخر من الخطّ. أعدت السماعة ثانية، وضغطت على زرار الاستدعاء. لكنني كنت واعيا تماما أنّ يدي ترتعش. كان الغلام بطيئا في حضوره. شاعرا بألم أكثر منه عدم صبر، ضغطت على الزرار ثانية، وثالثة، مستشعرا أخيرا معني كلمات "أنا موافق"، التي حاول القدر أن يوصلها إليّ.

كان زوج أختي الكبرى قد دهسته سيارة، وقتل في ذلك العصر في بلدة ليست بعيدة عن طوكيو. الأغرب من ذلك، ودون أيّ علاقة كلية بالطقس، كان يرتدي معطف مطر. كنت مازلت أكتب نفس القصة القصيرة في غرفة هذا الفندق. لم يكن هناك أيّ فرد يتحرّك هناك في الممر. لكن من وراء الباب أمكنني أن أسمع أحيانا رفيف جناحين. ربّما كان شخص يحتفظ بطائر.

(2) انتقام

استيقظت عند حوالي الثامنة والنصف في الفندق. لكنني اكتشفت، عند خروجي من الفراش، شيئا سخيفا تماما، هو أن فردة خفّي قد اختفت. كان ذلك شيئا يدفعني إلى الخوف والقلق، وما شابه ذلك، وهو ما حدث خلال عام أو عامين مضيا. كما ذكّرني أيضا بأسطورة أمير إغريقي ارتدى خفا واحدا فقط. ضغطت على الجرس مستدعيا الغلام، وجعلته يبحث لي عن فردة خفّي المفقودة. بحث في الغرفة بتعبير غريب على وجهه.

- لقد وجدتها، هنا. هنا في الحمام.

- كيف وصلت إلى هناك؟

- ربّما بسبب فأر.

تناولت قهوة دون لبن، بعد أن انصرف الغلام، وبدأت في إنهاء قصتي. كان إطار نافذة الغرفة المربع من حجر مسامي، يطلّ على حديقة مغطاة بالثلج. كنت أحدّق غائب الذهن إلى الثلج، كلّما توقفت عن الكتابة. ظهرت هناك بقايا ثلج تحت شجيرة غار مزهرة، تلوثت بدخان وعوادم المدينة. آلمني مشهدها. دخنت سيجارة، وفكّرت دون أن أضع قلما على الورقة، أن أكتب عن حشد من أشياء: زوجتي، أطفالي، وأهمّ من كلّ ذلك، زوج أختي الكبري...

قبل أن يحاول الانتحار، كان موضع اتهام، بإحراق المباني عمدا. كان ذلك ما لا يمكن تلافيه فعلا. قبل أن يحترق بيته تماما، كان قد أمّن عليه بضعفيّ قيمته. رغم ذلك، بينما اتهم بالحنث باليمين، كان محلّ تدقيق صارم.

لم تكن محاولة انتحاره مع ذلك، هي ما جعلني أقلق ؛ لأنني لم أستطع أبدا العودة إلى طوكيو دون رؤية حريق. كان هناك، ذات مرّة، حريق رأيته في التلال من القطار، ومرّة أخرى من سيارة (كنت مع زوجتي وأطفالي، قرب "توكيواباشي"). كان لديّ في الحقيقة هاجس بحريق بطبيعة الحال، قبل أن يحترق بيته.

- قد تندلع نار في بيتنا هذا العام .

- لا تتحدّث بهذا الشكل.. إذا حدث أن كانت هناك أيّة نار على الإطلاق، فإنّها ستجلب معها حملا من مشاكل. ليس هناك تأمين كاف، و ...

هكذا، تحدثنا. لكن لم تكن هناك أيّة نار، و – محاولا التخلص من الفكرة – التقطت قلمي مرّة أخرى. لم يواتني حتى مجرّد سطر واحد. أخيرا، هجرت موقعي إلى المنضدة، واستلقيت على الفراش، وبدأت في قراءة رواية تولستوي "بوليكوشكا". كان بطل الرواية شخصية مركّبة من غرور، وتكوين غير عادي، وطموح، كلها مختلطة معا. وبواسطة بعض تغيّرات ثانوية، أمكن عرض دراما تراجيكوميدية لحياته كصورة كاريكاتورية، وقد شعرت بشكل خاص، بسخرية القدر في دراما تراجيكوميدية الرواية، وهو ما جعلني أشعر بحظ عاثر بالتدريج. ظهر فأر كبير، بعد ما لا يقل عن ساعة من ذلك، خطى بسرعة قطريا من أسفل الستارة باتجاه الحمام، فانتفضت من الفراش، قاذفا بالكتاب في ستارة النافذة الفضفاضة في ركن الغرفة.

- عليك اللعنة!

اتجهت نحو الحمام، فتحت الباب، باحثا عنه. لم يكن هناك أيّ أثر له وراء الحوض الأبيض. شعرت ثانية بحظ عاثر. لبست خفّي بسرعة، وخرجت إلى الممر، لكن لم يكن هناك أيّ شيء حيّ على مرمى البصر.

كان الممرّ كالعادة، قاتما مثل سجن. صعدت وهبطت سلالم منكّس الرأس، غير مبال تماما، فوجدت نفسي فجأة في المطبخ. كانت الغرفة ألمع ممّا توقعت. وفوق أحد الجوانب ارتفعت بوفرة ألسنة لهب من موقد. شعرت بعيون الطباخين الباردة، بقبعاتهم البيضاء، تحملق فيَّ أثناء عبوري. شعرت بنفسي فورا، مرميًا في الجحيم: "**إنّ الله يعاقبني. رجاء، لا تتضايقوا. سيتمّ تدميري**". بطبيعة الحال، كان مثل هذا التضرّع، متجها في تلك اللحظة، إلي أن يخرج من بين شفتي.

غادرت الفندق، مشيت بصعوبة عبر الطريق الموحل إلى منزل أختي الكبرى. كانت أشجار المنتزه على امتداد الطريق، قد اسودّت كلّ أوراقها وأفرعها. وكان لكلّ منها، تماما مثلنا، واجهة وجانب خلفي. كانت أقل إزعاجا لي من أن تكون مرعبة. تذكّرت الروح، التي استحالت إلى شجرة في جحيم الشاعر القديم "دانتي"، وقررت أن أمشي على الطريق عبر مسارات الترام، حيث شكّلت المباني صفا ثابتا. لكن حتى إلى هناك، كان مجرّد وجود مبني واحد كثيرا جدا.

- اعذرني لإيقافك.

كان من أوقفني شخصا في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، في ملبس ذي زراير ذهبية. حملقت إليه دون كلمة، ولاحظت شامة على الجانب الأيسر من أنفه. جعلتني عصبيا، وأنا أنزع قبعتي.

- ألست أنت السيد "ألف"؟

- نعم.

- لقد ظننت أنك..

- ماذا تريد؟

- لا شيء. أردت فقط أن أحييك. إنني أحد معجبيك، يا "سنسي"..

أملت، عند ذلك، قبعتي له، وبدأت أزيد المسافة بيننا، بسرعة بقدر ما أستطيع. "سنسي". "ألف. سنسي". بدأ الاسم مؤخرا يصبح أكثر اشمئزازا بالنسبة لي. راودني شعور أنني ارتكبت كلّ جريمة يمكن تخيّلها. بغضّ النظر، عن أنني أسمّي الآن "سنسي"، كلما أمكن. لم أستطع مقاومة الشعور بأنّ شيئا ما فيه مخجل. شيء ما؟ لكن ماديتي لا ينبغي أن تعوق تأمّلي اللاعقلاني. كنت قد كتبت مؤخرا في مجلة صغيرة، أنّه "ليس لديّ ضمير فني فقط، بل لا ضمير على الإطلاق. كلّ ما لديّ أعصاب.."

كانت أختي الكبرى قد وجدت مأوى مع أطفالها، في بناء مكتظ في زقاق. ظهر ورق حوائط المبني، بداخل ذلك البناء المكتظ، أكثر كآبة عمّا بدا عليه من الخارج. تحدثنا في موضوعات مختلفة، ونحن ندفّئ أيدينا فوق كانون فحم نباتي.

كان زوج أختي رجلا ذا بناء قصير قويّ ممتلئ الجسم. لم يكن منذ البداية، على نحو غريزي، ذي نفع بالنسبة لي. وقد أشار صراحة إلى لا أخلاقية عملي. لم أجر أيّة محادثة ودودة معه. مرجع ذلك نظرته بارتياب إلى أيّ فرد له مثل أفكاري. تيقنت، بعد أن تحدثت مع أختي، أنّه هو أيضا قد رمي إلى الجحيم بالتدريج. سمعت أنّه رأى فعلا شبحا نائما في حجيرة. لكنني، حافظت بحرص، وأنا أشعل سيجارة، أن يظلّ الحديث حول موضوع المال:

- على أيّة حال، لقد حسبت الأمر بهذا الشكل، أن أبيع بقدر الإمكان أكبر ما أستطيع.

- لقد قدّرت نفس الأمر أيضا. وقد توفر الآلة الكاتبة بعض المال.

- ولدينا بعض اللوحات.

- ماذا عن بيع صورة شخصية لـ"إن - سان" (زوج أختي)؟ لكن ذلك هو..

تطلعت إلى الصورة الشخصية المرسومة بقلم الفنان "كونتي" المعلقة على الحائط، وشعرت أنني لا ينبغي أن أضحك بطيش شديد. لقد سمعت أن وجهه انسحق بواسطة قطار إلى مجرد خرقة من لحم، وبقي شاربه فقط. هزّتني القصة، في الحقيقة. رسمت باكتمال تفصيلي صورته الشخصية، لكن شاربه بدا بشكل ما غير واضح. فكّرت أن الأمر قد يكون بسبب الإضاءة، فدرست الصورة من مختلف الزوايا.

- ماذا تفعل؟

- لاشيء..أنظر فقط حول فم تلك الصورة...

استدارت لوهلة، لتنظر هي أيضا، لكنها قالت إنّها لم تجد أيّ شيء خاطئ.

- **يبدو الشارب كثيفا، سخيفا تماما، أليس كذلك؟**

لم يكن ما رأيته وهما. لكن إذا لم يكن الأمر كذلك... قررت أن من الحكمة أن أغادر أختي، قبل أن تبدأ جدلا حول الغداء.

- **لماذا لا تمكث فترة أطول قليلا؟**

- **ربّما غدا.. عليّ اليوم أن أذهب إلى "أوياما"**

- **آه، هناك؟ هل تشكو من أيّ شيء؟**

- **إنني أتناول أدوية نوم كالمعتاد. تناولت كثيرا جدا من فرونال، ميرونال، تريونال، ونيبال...**

بعد ذلك بما يقرب من عشرين دقيقة، دخلت المبنى، استدعيت مصعدا، وصعدت إلى الطابق الثالث. هناك، حاولت دفع وفتح باب المطعم الزجاجي. لم يستجب. كان مغلقا، عليه إشارة مكتوب عليها "إجازة محلّ". كنت منزعجا قليلا، لكن بعد إلقاء نظرة على التفاح والموز المعروضين على مائدة في الجانب الآخر من الباب، قررت أن أرجع ثانية إلى الشارع. بدا عاملا المكتب مستغرقين في محادثة عند المدخل، مسّاني برفق. قال أحدهما، في تلك اللحظة، أو بدا أنّه قال **"إنّ هذا معذّب"**

وقفت في الشارع، منتظرا أن تمرّ بجواري سيارة أجرة. استغرق الأمر بعض الوقت. رغم ذلك، لم أفشل عادة أبدا، في إيجاد سيّارة أجرة صفراء

هناك. (دائما تورّطني سيارات الأجرة الصفراء، هذه، لأسباب ما، في حوادث). وجدت لحسن الحظ بعد برهة، مع ذلك، سيارة خضراء، وقررت، على أيّة حال، أن أذهب إلى المستشفى العقلي قرب جبانة "أوياما"

"معذب – معذب – يعذب – الجحيم.."

كنت أعذّب نفسي، في الحقيقة، وأنا أحملق إلى الفاكهة عبر الباب الزجاجي. حملقت إلى ظهر السائق، لاعنا "جحيم" دانتي بعين خيالي. غمرني شعور بأنّ كلّ شيء مجرّد كذبة. كلّ السياسة، مجال الأعمال، الفنّ، والعلم، في مواجهة ما أنا فيه الآن، لم يكن كلّ ذلك شيئا، بل مجرّد تغطية لهذا الوجود المرعب. بدأت أشعر باختناق، وفتحت نافذة. لكن الشعور لم ينقض.

وصلت سيارة الأجرة الخضراء، في النهاية، إلى "جنجي – ميا". هناك زقاق يقود إلى المستشفى العقلي. رغم ذلك، لم أستقر على رأي في هذا اليوم. قررت أن أخرج من السيارة بعد أن جعلتها تعود ثانية إلى مسارات الترام، وأوقفتها بعد أن جعلتها تستدير ناحية المستشفى.

وجدت طريقي أخيرا، رحت أنحرف يمينا ويسارا في طريق مليء ببرك طين. ثم، لابد أنني أخذت استدارات خاطئة، دون انتباه ؛ لأنني وجدت نفسي في "دار جنازات أوياما". كان مبني، لم أعبر بوابته منذ جنازة "ناتسومي – سنسي"، قبل عشر سنوات. لم أكن سعيدا جدا، منذ عشر سنوات، لكنني كنت آمنا على الأقلّ. لاحظت أعمال فرش الحصباء وراء البوابة، ذكرتني بنبات موز الجنة في استراحة "سوزيكي". لم أستطع أن

أمنع شعورا بأنّ شيئا ما قد سحبني ثانية إلى هذا المكان بعد غياب عشر سنوات.

بعد مغادرة بوابة المستشفي العقلي، أخذت سيارة أجرة مرّة أخرى، وقررت أن أعود إلى الفندق، الذي كنت فيه من قبل. لكن عند مغادرة سيارة الأجرة أمام مدخل الفندق، رأيت رجلا في معطف مطر يتجادل مع نادل لسبب ما. مع نادل؟ لا. ليس نادلا، بل هو رجل في زيّ أخضر مسئول عن سيارات الأجرة. بدت فكرة دخول الفندق مشئومة بالنسبة لي، فعجلت بالابتعاد.

كان الغروب يقترب، حين وصلت إلى "جينزا". تجمّعت كلّ المحلات ضاغطة على جانبي الطريق، وأحبطتني أكثر حشود محيّرة للبشر. أزعجني كثيرا أن يمشي كلّ هؤلاء الأفراد في الطريق برباطة جأش، بلا مبالاة، كما لو كانوا غير معنيّين بالذنب. استمررت في السير شمالا بين فوضى الغسق والأضواء الكهربية. ثم وقعت عيناي على مكتبة بها مجلات وكتب مكوّمة. دخلت، غائب الذهن، وبحثت في بعض الأرفف. كان هناك كتاب عنوانه "أسطورة إغريقية"، قررت أن أنظر فيه. بدا أنّ كتاب "أسطورة إغريقية" بغلافه الأصفر، مكتوب للأطفال. لكنّ سطرا واحدا، قرأته بالصدفة، صدمني فجأة:

"حتى الإله "زيوس" الأقوى لا يستطيع أن يتغلب على إله الانتقام..."

غادرت المحلّ، واندمجت في الزحام. أمكنني أن أشعر أنّ إله الانتقام يحوّم حول ظهري، فبدأت التجوّل دون هدف.

(3) لـيــل

في أحد أرفف مكتبة "ماريزن"، وجدت كتاب "أساطير" للسويدي "ستريندبرج". قرأت عدّة صفحات أثناء وقوفي هناك. كان له غلاف أصفر ويصف تجاربَ لا تختلف كثيرا عن تجاربي. أعدته ثانية، وجذبت كتابا ضخما، تصادف أن وقعت يداي عليه. كان فيه ما ينبغي أن يكون هناك، تصوير لتروس بعيون وآذان ليست مشابهة لمخلوقات بشرية! كانت مجموعة تصاوير جمعها بعض الألمان لنزلاء مستشفى أمراض عقلية من المجانين. قد يمكن لروحي، حتى في حالة اكتئابي، أن تشعر بالرغبة في الثورة، لكني حافظت علي فتح الكتب، كتابا بعد آخر، بيأس مغامر متمرّس. بدا، على نحو عرضي، أنّ كلّ كتاب، يخفي بوضوح إشارات في جمله وتصويراته. كلّ كتاب؟ حتى رواية "مدام بوفاري"، التي قرأتها عدّة مرّات من قبل، شعرت في النهاية أنني ذلك البرجوازي الصغير الوحيد للمسيو بوفاري.

هبط الليل. لم يبد أنّ هناك أيّ زبون آخر بخلافي بالدور الأعلى لمكتبة "ماريزن". بحثت في أرفف الكتب، على الضوء الكهربي. توقفت عند رفّ تحت عنوان "دين"، وأخذت كتابا بغلاف أخضر. قرأت علي المائدة محتويات الفصل الأول "أربعة أعداء مميتة: شكّ، وخوف، وغرور، وحساسية". ثارت نفسي، فورا، من تلك الكلمات. كانت تلك الأعداء، مجرّد أسماء أخرى للحساسية والذكاء. كان من غير المحتمل أن تشعر بالموروث محزنا

كالحديث. ذكّرني الكتاب، الذي بين يدي، بالاسم الأدبي الذي استخدمته ذات مرة "جيريو يوشي". كان اسم شاب عند "تشانج تزو"، حاول أن يقلد المشي بالأسلوب الصيني، وانتهى إلي الزحف فقط عائدا إلي البيت. لابد أن أكون "جيريو يوشي" الآن أمام أيّ شخص. وما دامت أنني لم أودع إلى الجحيم بعد، مستخدما الاسم، حاولت فقط أن أتخلص من وهمي، مع حمولة رفّ كتب ورائي. ثم دخلت إلى غرفة عرض ملصقات إعلانية، بعيدا في أحد الجوانب. كان هناك في واحد من إعلانات الملصقات، فارس بدا أنّه "سانت جورج"، وهو يطعن تنينا مجنّحا حتى الموت. وقد كشف، على قمة الملصق، عن نصف وجه فارس عابس يرتدي خوذة. أنّه يشبه واحدا من أعدائي. تذكّرت أيضا فن "التحبير" في "كانبيشي"، وهبطت إلى أسفل السلم العريض ، دون المرور عبر غرفة العرض.

ظللت أفكر في كلمة "تحبير توربي". كانت هي اسما لـ"خرطوشة حبري" أيضا، أنا متأكّد. كان الرجل الذي أعطاها لي، مقاولا بالتأكيد. فشل في مختلف الأعمال، وتحوّل أخيرا إلى الانهيار والدمار. وجدتني أتطلع إلى السماء، وأفكّر كم كانت الأرض صغيرة إزاء كلّ النجوم، وكم كنت أنا أيضا أصغر. لكن السماء، التي كانت صحوا على مدار النهار، أصبحت غائمة دون أن أدرك ذلك. شعرت فورا أنّ الأشياء، قد أخذت منحى عدائيا تجاهي، وقررت أن أجد ملاذا في مقهى.

"ملاذ"، كان بشكل محدد ما كان. شعرت بشكل ما أنّ هناك شيئا مهدئا في لون الحائط الوردي الخفيف، واسترخيت إلى مائدة. كان هناك، لحسن الحظ، عدد قليل من الزبائن فقط. ارتشفت قدحا من الكاكاو، وبدأت في

سحب سيجارة كالمعتاد. ارتفع الدخان في تيّار أزرق واهن على الحائط الوردي. كان تناسقا امتزجت فيه الألوان الناعمة بشكل مناسب لي. لكنني اكتشفت بعد فترة بورتريها لنابليون على الحائط إلى يساري. وبدأت أشعر ثانية بقلق. حين كان نابليون طالبا، كتب على الورقة الأخيرة من كراسة الجغرافيا "سانت هيلانة.. جزيرة صغيرة". ربّما كانت، كما نقول، مجرّد صدفة. لكن لابد أنّها جعلت نابليون يرتعش في النهاية...

فكرت في عملي الخاص، وأنا أحملق في نابليون. وهناك تفجّرت في أعماقي عبارات معينة من قصتي "حياة غبي". (خاصة كلمات "الحياة أكثر جحيمية من الجحيم ذاته") وأيضا مصير بطل قصتي "صور من الجحيم"، التي كانت تدور حول رسّام يدعي يوشيهايد". ثم ... نظرت حولي في المقهى، وأنا أدخن، محاولا الهروب من مثل هذه الذكريات. اتخذت، هنا، مأوى منذ أقلّ من خمس دقائق. وقد طرأ على المكان تغيّر كبير فعلا. إنّ ما جعلني أكثر انزعاجا، هي حقيقة أن المقاعد والموائد تقليد الماهوجني، لم تتسق مع الحوائط الوردية. حاولت أن أغادر المقهى سريعا تاركا عملة فضية، خشية أن أسقط في عذاب غير مدرك للآخرين.

- سيدي، إنّ الحساب عشرون سن....

أسقطت عملة نحاسية أخرى.

مشيت في الطريق وحدي شاعرا بإذلال. تذكّرت فجأة منزلي في غابة الصفصاف البعيدة. لم يكن مكان والديّ المحبب بعيدا في الضواحي، لكنه كان منزلا استأجرته لأسرتي، التي كنت أعولها. اعتدت أن أعيش في هذا

المنزل أيضا لمدّة عشر سنوات سابقة. لكن لسبب أو لآخر، اندمجت ثانية دون تفكير مع جماهيري. بدأت في نفس الوقت، أصبح عبدا، طاغية، أنانيا، عاجزا...

كانت الساعة تقترب من العاشرة، حين وصلت ثانية إلى الفندق. لقد تمشيت مسافة طويلة لدرجة أنني لم تعد لديّ قوة للذهاب إلى غرفتي، فجلست بدلا من ذلك على كرسي أمام مدفأة في مدخل الفندق، حيث يحترق زند خشب ضخم. بدأت أفكّر في القصة الطويلة، التي خططت لها. كانت قصة طويلة تدور حول أناس عاديين من "سيكو" إلى عصر الميجي. قد يقدّمون كأبطال، في متتالية من أكثر من ثلاثين قصة قصيرة مقسّمة زمنيا. تطاير بعض الشرر، فتذكرت التمثال البرونزي في مواجهة القصر الإمبراطوري. كان التمثال في درع وخوذة، يرتفع عاليا منفرج الساقين على جواد مطهّم كما لو أنه ، هو نفسه، نموذجا للولاء . لكن عدوّه كان "كذبة!"

أسرعت مرّة أخرى، من ماض بعيد إلى حاضر قريب. الرجل، الذي جاء بعد ذلك، لحسن الحظ، كان نحّاتا عجوزا، يرتدي معطفا ناعما، ذا لحية مشذبة قصيرة. نهضت وهززت اليد، التي مدّها (لم تكن تلك عادتي. اتبعت عادته فقط، لأنّه أمضى نصف حياته في باريس وبرلين). كانت يده مع ذلك، سخيفة كفاية، لزجة تماما مثل جلد أحد الزواحف.

– هل تقيم هنا؟

– نعم ...

- كي تؤدي عملك؟

- نعم، كي أؤدي عملي، أيضا.

نظر إلى وجهي مباشرة، شعرت بتدقيق مخبر خاص في عينيه

- هاي، ماذا لو جئت إلى غرفتي لنتبادل بعض الحديث؟

تحدثت بحدّة (كانت إحدى عاداتي السيئة، أن أتلبّس بسرعة مزاجا متحدّيا، رغم أنّه لم تكن لديّ شجاعة). ابتسم .. سألني بالمقابل:

- أين غرفتك؟

مشينا كتفا إلى كتف عبر حديث غريبين ناعم، كما لو كنّا صديقين حميمين، وذهبنا إلى غرفتي. جلس على كرسي في حجرتي والمرآة خلفه. بدأ الحديث حول عدّة أشياء. عدّة أشياء؟ - غالبا، في الحقيقة، كانت قصصا حول نساء، وكنت دون شكّ فردا من أولئك الملعونين في الجحيم بسبب من خطايا ارتكبتها. لذا جعلتني حكايات الرزيلة أكثر اكتئابا. شعرت لوهلة بتطهّر، وبدأت أحتقر أمثال أولئك النسوة.

- ينبغي أن تلقي نظرة على شفتي "س - كو - سان"، لأنّها بسبب تقبيلها عديدا من الرجال، فإنّها ..

أغلقت فمي فجأة، ونظرت إلى ظهره في المرآة. كان لديه لاصق أصفر موضوع عند أسفل أذنه تماما.

- بسبب تقبيلها عديدا من الرجال؟

- تبدو من ذلك النوع ..

ابتسم، وأومأ برأسه. شعرت دائما بعزمه على محاولة أن ينتزع بصعوبة كشفا سرّيا. لكن حديثنا حول النساء لم ينته بعد. شعرت بضيق أكثر لافتقاري إلى الشجاعة أكثر من كراهيتي له، وأمكنني فقط أن أصبح أكثر إحباطا.

استلقيت أخيرا، بعد أن ذهب، وبدأت قراءة رواية "مرور ليلة مظلمة" للمؤلف "شيجا نازيا". سرعان ما انتقلت إليّ أيّ نضال روحي عاناه بطلها. شعرت كم كنت سخيفا، مقارنة به، ووجدت نفسي أبكي دون أن أدرك ذلك. جلبت لي الدموع سلاما، في نفس الوقت. لكن ليس لوقت طويل. بدأت عيني اليمنى تستشعر تلك التروس الشفافة، مرّة أخرى. كانت التروس، تدور حول محورها دائما، متزايدة تدريجيا في العدد. تركت الكتاب إلى جوار الوسادة ، خوفا من الصداع. تناولت 0.8 جرام من الفيرونال، وعلى أيّة حال، قررت أن أحاول الحصول على ليلة مريحة طيبة.

لكن في حلمي، كنت أحدّق إلى حمام سباحة. كان هناك عديد من أولاد وبنات يسبحون، ويغوصون تحت الماء. مشيت إلى غابة صفصاف، تاركا حمام السباحة خلفي. ثم تحدّث شخص ما من ورائي:

- بابا...

استدرت لوهلة، وجدت زوجتي واقفة إلى جوار حمام السباحة. شعرت بأسف شديد.

- هل تريد منشفة، يا بابا؟

- إنني لا أحتاجها. راقبي الأطفال.

مشيت. لكن أصبح المكان، الذي أمشي فيه، رصيفا، قبل أن أعرف. بدا أنّه يشبه رصيف محطة قطار ريفية حولها سياج طويل من شجيرات. كان يقف هناك أيضا طالب من الجامعة، يدعي "هـ"، وامرأة عجوز. لاحظاني، وأقبلا عليّ، وحيياني واحدا بعد الآخر.

- حريق كبير، أليس كذلك؟

- رتّبت فورا، أن أهرب أيضا.

بدا لي أنني سبق أن رأيت العجوز من قبل. وشعرت بانتعاش من الحديث إليها. ثم جاء قطار نافثا دخانا بهدوء. ركبت القطار وحدي، ومشيت فيه بين أسرّة حيث لاحظت ملابس بيضاء معلقة على كلا الجانبين. لاحظت امرأة عارية تشبه تماما جيفة، مستلقية على سرير مواجهة لي. ربّما كانت ابنة أحد المجانين – إله انتقامي...

سرعان ما ابتعدت عن الفراش، بمجرّد أن صحوت، رغما عن نفسي. حافظت الأنوار الكهربية على الغرفة لامعة، كما في السابق. لكن في مكان ما بدت هناك أصوات رفرفات أجنحة، قرض فئران. فتحت الباب، خرجت إلى الممر. وسرعان ما اتخذت طريقي إلى مدفأة بالردهة. أجلست نفسي، وبدأت أحدّق في الوهج الخافت. دخل غلام في زىّ أبيض، كي يزوّد النار بالوقود.

- كم الساعة؟

- حوالي 3.30 . يا سيدي.

كانت هناك امرأة، في ركن بعيد من الردهة، تبدو أمريكية، مشغولة وحدها بقراءة كتاب. كان من الواضح، حتى من المكان الذي كنت فيه، أنّها ترتدي لباسا أخضر. شعرت براحة، بطريقة أو بآخرى، وقررت أن أنتظر بهدوء انبلاج النهار، مثل عجوز ينتظر الموت، بعد معاناة طويلة مع المرض...

(4) سكون؟

أنهيت، أخيرا، القصة القصيرة في غرفة الفندق، وقررت أن أرسلها إلى مجلة معيّنة. بطبيعة الحال، سيكون المال الذي سأكسبه أقلّ ممّا أحتاجه كي أغطي فاتورة الفندق لمدّة أسبوع. لكنني كنت راضيا عن إنجاز العمل، وقررت أن أزور مكتبة في "جينزا" من أجل بعض دواء روحاني مقوّي.

كان هناك، في شمس الشتاء، نثار من أوراق مهملة على الرصيف الإسفلتي. كانت تبدو جميعا تماما مثل ورود. شعرت بشكل ما أنني في حالة طيبة، ودخلت إلى المكتبة. كان الجوّ أكثر نقاء من المعتاد. رأيت فتاة شابة ذات نظارة تتناقش في أمر ما مع كاتب. لم يتخذ حديثهما معا مسارا طيّبا بالنسبة لأعصابي. تذكّرت، مع ذلك، ورود الأوراق المهملة بالطريق، وقررت أن أشتري "الحوارات المجمعة" للفرنسي "أناتول فرانس"، و"الخطابات المجمعة" للمؤرخ والكاتب الفرنسي "بروسبر مريميه".

ذهبت إلى مقهى، والكتابان تحت ذراعي. قررت أن أنتظر إحضار قدح من القهوة إلى مائدة في ركن بعيد من المكان. على الجانب الآخر جلس

شخصان، بدا أنهما أمّ وابن. كان الابن أصغر منّي، لكنّه بدا نسخة شبيهة تماما لي. كانا يتناقشان بحميمية، كما لو كانا عاشقين. بدأت أحسّ، بمراقبتهما، أنّ الابن كان معنيًا بتزويد أمّه بنوع من الإشباع الجنسي. كانت نوعا من علاقة عرفتها بالخبرة، لكن لكونها من مرحلة متعمّدة، كانت تجعل الحياة جحيما. كنت أخشي، في نفس الوقت، أن أسقط ثانية في شرك القلق، وبدأت أقرأ "الخطابات المجمعة" لبروسبر مريميه، مستفيدا من خدمة القهوة. كشفت الرسائل عن ظرفها، في نفس السياق الحكيم، كما في الروايات. منحتني مثل تلك الجمل حافة صلبة لمشاعري (كانت إحدى نقاط ضعفي تكمن في سهولة تأثري بمثل هذه الحيل). ما أن آتت القهوة مفعولها، وشعرت بالاسترخاء، حتى غادرت المقهى.

استعرضت نوافذ المحلات، على طول الطريق، واحدة اثر أخرى. اتخذ إطار محلّ بورتريها لبيتهوفن. كان البورتريه عبارة عن صورة عبقري ذي شعر ممتد حتى النهاية. لم أستطع تجنب شعور بسخافته...

عندئذ فقط، وقع بصري على صديق قديم لي منذ أيام الدراسة. أستاذ جامعي في الكيمياء التطبيقية حاليا. كان يحمل حقيبة منتفخة، وكانت إحدى عينيه قد تخثرت احمرارا.

– ماذا حدث لعينك؟

– هذه؟ مجرّد التهاب ملتحمة.

تذكّرت عندئذ، بشعور من الألفة، أنني عانيت غالبا من نفس المرض مبكرا في الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمري. لكني لم أقل شيئا. ربت

على كتفي، وبدأ يتحدث عن أصدقائنا. قاده الحديث إلى أن يسحبني إلى مقهى. ثم تحدّث عبر مائدة رخامية، بعد أن أشعل سيجارا:

- لقد انقضى وقت طويل منذ أن التقينا آخر مرّة. ربّما لم يحدث، منذ الاحتفال بالنصب التذكاري للمفكر الصيني "شي شينسي".

- نعم. "شيشين" ذاك..

لا أدري لماذا، لكنني لم أستطع نطق اسم "شي شينسي" بشكل صحيح. ونظرا لكون صديقي يابانيا، جعلني أشعر بقلق أكثر. لكنه تبادل الحديث حول حشد من الأشياء دون أن يلاحظ، حول الروائي "ك"، حول كلب البولدوج الذي اشتراه، حول غاز الـ"لوسايت" السام...

- يبدو أنك لا تكتب كثيرا. لقد قرأت فعلا قصة "تسجيل موت"، مع ذلك.. أليس ذلك أدبا سيريا؟

- نعم، إنه أدب سيري.

- إنّه كئيب إلى حدّ ما. هل أحوالك على ما يرام في هذه الأيام؟

- إني مجبر على تناول أدوية دائما، كما تعرف.

- إني أعاني هذه الأيام من أرق أيضا.

- ماذا تعني "أيضا"؟

- السبب أني سمعت أنك تعاني من أرق أيضا. أليس ذلك صحيحا؟ إنه خطير، كما تعرف...

كان هناك ظلّ ابتسامة ظهر في العين اليسري، التي تعاني التهاب الملتحمة. حدّست، قبل أن أجيب، أنني سأجد صعوبة في نطق المقطع اللفظي الأخير من "أرق".

- إنّه أمر طبيعي، لابن شخص مجنون.

بعد أقلّ من عشر دقائق، كنت أتمشى ثانية على امتداد الطريق. لم تعد بقايا المهملات على الإسفلت تشابه وجوه الرجال. ثم اقتربت امرأة بشعر مقصوص من الاتجاه المقابل. بدت من بعيد جميلة. لكن حين اقتربت منّي، لم تكشف عن تجاعيد فقط، بل عن قبح أيضا. بدا أنّها حامل. استدرت مبتعدا عنها، رغما عن نفسي، متحوّلا إلى شارع جانبي واسع. لكنني بدأت أشعر الآن لبعض الوقت، بآلام البواسير. كان ألما يمكنني التغلب عليه فقط بحمام من ورد برّي.

"حمام ورد بري..اعتاد بيتهوفن على أن يأخذ حمام ورد برّي أيضا"

سرعان ما لسعت رائحة الكبريت المستخدم في الحمامات خياشيمي. بطبيعة الحال، لم يكن هناك في النهاية كبريتا في الشارع. تذكّرت ورود المهملات مرّة أخرى، ومشيت متمهّلا بقدر الإمكان.

بعد ساعة، عدت إلى غرفتي مرّة أخرى. جلست إلى المنضدة، وبدأت قصة أخرى، لدهشتي الخاصة، تحرّك القلم متدفقا على الورق. لكنّه توقف بعد عدّة ساعات، كما لو أن شيئا خفيّا قد تدخل. شعرت أنّي مجبر على النهوض عن المنضدة، وأن أمشي ذهابا وإيابا حول الغرفة. كان وهم الامتداد غير معتاد أكثر هذه المرّة. شعرت، بنوع من فرح وحشي، من أنه لم

يكن هناك أبوان أو زوجة، أو أطفال، فكلّ ما كان لديّ هي الحياة، التي تدفقت من قلمي.

لكن بعد أربع أو خمس دقائق، استدعيت للتليفون. أجبت عدّة مرات، لكن التليفون كرر مجرّد كلمات ملتبسة. بدت على أيّ حال أكثر مثل الأخريات. أخيرا، هجرت التليفون، وبدأت أخطو في الغرفة ثانية. لكن كلمة "أكثر"، أثقلت علي بشكل غريب تماما.

"أكثر mole -- more..."

"mole"، باللغة الإنجليزية هي "مشرحة". لم تكن الصلة أمرا سعيدا بالنسبة لي أيضا . وخلال ثوان ، كنت أقاتل ضد "mole" الموت . الموت "la mort. La mort" – موت باللغة الفرنسية – جعلني أشعر بقلق. مثلما ضغط الموت على زوج أختي. يبدو أنه يضغط الآن عليّ، كذلك. لكن حتى مع قلقي، شعرت بشيء مبهج. ووجدت نفسي أبتسم دون تعمّد. لماذا عاملني كشيء مبهج؟ لم أكن متأكّدا. وقفت أمام المرآة، وهو ما لم يسبق أن فعلته لبعض الوقت، وواجهت انعكاسي. كان وجهي مبتسما بطبيعة الحال، حين بدأت أحملق فيه، تذكّرت الأنا والآخر. نفسي الأخرى – البديل الألماني – لم يشبهني أبدا لحسن الحظ. لكن زوجة "كي"، التي أصبحت نجمة سينمائية أمريكية، صادف أن رأت شخصي الآخر في ممرّ بالمسرح الإمبراطوري. (تذكرت ضيقي حين خاطبتني فجأة السيدة "كي"، قائلة: "إنني آسفة، لأنني لم أحيّك في ذلك اليوم الآخر"). ثم تصادف أن رأى أيضا مترجم سابق، ذو ساق واحدة، نفسي الأخرى، في محلّ تبغ في

"كينزا". ربّما يأتي الموت إلى نفسي الأخرى، بدلا مني. حتى لو حدث هذا لي .. استدرت مبتعدا عن المرآة، ورجعت إلى المنضدة أمام النافذة. أمكن أن أرى، عبر الإطار المربع للنافذة، مرجا متلاشيا، وحمام سباحة، وتذكّرت وأنا أحدّق إلى الحديقة بعض مذكّرات ومسرحيات لم تتم، أحرقتها بعيدا في غابة الصفصاف. التقطت قلمي، وبدأت مرّة أخرى كتابة قصة جديدة.

(5) ضوء أحمر

بدأ ضوء الشمس يعذبني. أبقيت الستائر مسدلة، مثل سدّ، وأنوار الكهرباء مضاءة، وحافظت على الاندماج في القصة. ثم فتحت كتاب الناقد الفرنسي "تين"، وقرأت عن حياة الشعراء. كانوا جميعا غير سعداء، حتى عمالقة العهد إليزابيثي، ومنهم الشاعر وكاتب المسرح الإنجليزي "بن جونسون"، أشهر عالم في أيّامه- وجد نفسه مغلفا بالقلق لدرجة أنّه بدأ يرى جيوشا رومانية وقرطاجنية تتعارك حول أصبع قدمه الكبير. لم أتمالك من الشعور بالسرور، ليس دون إحساس بالضغينة، لمثل سوءات الحظ تلك.

ذات ليلة، حين هبّت ريح شرقية بشدّة (بالنسبة لي، كانت بشيرا طيّبا)، خرجت من خلال القبو إلى الشارع، وقررت أن أزور عجوزا أعرفه، يعمل بنفسه كوكيل في صومعة لشركة إنجيل، وقد كرّس معظم وقته للصلاة والقراءة. دفأنا أيدينا على مدفأة الفحم الحجري، وتحدّثنا في موضوعات شتي تحت صليب على الحائط. لماذا جنّت أمّي؟ لماذا فشل أبي في مجال الأعمال؟ لماذا أعاقب؟ كان متألقا في مثل هذه القضايا الملغزة، مع ابتسامة

غريبة غامضة، وهو يتحدّث معي بيسر لوقت طويل. كان يقبض على الحياة في كليّتها بشكل كاريكاتوري، في أوقات معينة، بكلمات بليغة. لم أتمالك نفسي من أن أعجب بالناسك في صومعته. لكنني وجدته، أثناء الحديث معه، يشعر بصلات معيّنة..

- ابنة الجنايني لطيفة، حسنة المظهر – وطيّبة جدا معي .

- كم عمرها؟

- ثماني عشرة سنة، هذا العام.

ربّما كان ذلك نوعا من الأبوة فيه. لكن، لم يكن من الصعب الحدس ببعض الهوى في عينيه، وكشف لحاء التفاحات الصفراء، التي قدّمها دون تعمّد عن حيوانات وحيد قرن. (غالبا ما أجد مخلوقات أسطورية في غابة حبوب، وفي شروخ أقداح القهوة). كانت حيوانات وحيد القرن، هي دون شك "كلين" (وحيد القرن الصيني). تذكرت ناقدا عدائيا دعاني ذات مرة "معجزة" في عشرينيات القرن العشرين، وفجأة شعرت أنّ هذه العليّة بصليبها، لم تعد أيضا مكانا آمنا.

- كيف كان حالك مؤخرا؟

- منفعل، كالمعتاد.

- لن تشفيك الأدوية.. لماذا لا تصبح مسيحيا؟

- إذا أمكن، قد أصبح ...

- ليس هناك أمر صعب بهذا الشأن. إذا آمنت فقط بالإله، وبالمسيح ابن الإله، والمعجزات، التي قام بها المسيح..

- إنني أومن بالشياطين..

- إذن، لماذا لا تؤمن بالله؟ إذا آمنت بالظلّ، فلا يمكنني أن أرى كيف لا تؤمن بالضوء أيضا؟

- لكن هناك بعض ظلمات، ليس فيها ضوء..

- ظلمات دون ضوء؟

لم يكن هناك مزيد يمكن إضافته. كان يمشي في ظلام أيضا. لكن طالما كانت هناك ظلمات، فإنّه كان يؤمن بالضوء الذي يمضي معه. كانت تلك هي نقطة الاختلاف المنطقية الوحيدة بيننا. لكن بالنسبة لي، كانت هوّة لا يمكن اجتيازها...

- لكن هناك ضوء حقا. لدينا معجزات تثبت وجوده.. تحدث المعجزات، حتى في أيامنا هذه.

- المعجزات هي من أفعال الشياطين..

- من أين جاءت شياطينك؟

كنت راغبا في أن أخبره عن تجاربي خلال العام أو العامين الماضيين. مع ذلك، لم أفعل، خشية أن يخبر زوجتي أو أطفالي، وهو ما قد يترتب عليه إرجاعي إلى المصحة العقلية، مثلما كانت أمي.

- ما ذلك، الذي هناك؟

استدار العجوز، متعدد الوظائف، إلى أرفف الكتب القديمة، وصنع تكشيرة، كانت هي الأخرى مثل تكشيرة إله الغابات "بان".

- هذه سلسلة كتب للكاتب الروسي ديستويفسكي. هل قرأت رواية "الجريمة والعقاب"؟

بطبيعة الحال، كنت مولعا بـ"دوستويفسكي" منذ عشر سنوات، وقرأت أربعة أو خمسة كتب له. لكنني تأثرت عشوائيا بحديثه عن رواية "الجريمة العقاب"، فاستعرت الكتاب منه، مقررا أن أعود إلى الفندق. كان الشارع مضاء بالأنوار الكهربية، ومزدحما بشدّة بالبشر، الذين أحزنوني. عند هذه النقطة، لم أكن قادرا على لقاء أيّ شخص أعرفه. حاولت أن أتحرّك عبر شوارع جانبية أكثر ظلمة، وتقدّمت كلصّ.

بعد فترة، بدأت أشعر مع ذلك بآلام في المعدة. قد يشفي فقط كأس من الويسكي هذا الألم. وجدت بارا، وحاولت أن أندفع عبر الباب. كان الدخان، في البار الضيّق، يرتفع كثيفا، وبعض الشباب، الذين بدا أنهم قد يكونون فنانين، يشربون "الساكي" معا. كانت بينهم فتاة، غطى شعرها أذنيها، وهو معقوص بجديّة تامة على شكل مندولين. شعرت فورا بعدم يقين، واستدرت عائدا دون أن أعبر الباب. وجدت ظلي يتمايل إلى اليمين والى اليسار بحماقة، وكان الضوء الذي يشعّ عليّ بغرابة كافية، أحمر اللون. توقفت، لكن ظلي استمر يتمايل من جانب إلى آخر، كما كان من قبل. استدرت بجبن، وأخيرا لاحظت فانوسا زجاجيا ملوّنا معلقا من واجهة البار. كان الفانوس يتحرّك ببطء، متأثرا بريح قوية...

كان المكان التالي، الذي دخلته، مطعمًا في قبو. وقفت عند البار، وطلبت ويسكي.

صببت الويسكي في كأس صودا، وارتشفته بصمت. كان هناك تالیان لي، رجلان في حوالي الثلاثين، أو ما قارب ذلك، بديا مثل صحفيين، يتحدثان بصوت منخفض. كانا يتحدثان بالفرنسية. أبقيت ظهري لهما، لكنني شعرت بعيونهما عليّ. وقعت كلماتهما، في الحقيقة، عليّ مثل تيار كهربي. كانا يعرفان اسمي، بالقطع، وكانا يغتاباني.

"حسنا، سيئ جدا ...لماذا؟"

" ماذا؟ ... الشيطان موت!"

" ماذا، ماذا.. في الجحيم.."

أسقطت عملة فضيّة على البار (آخر نقود حقيقيّة معي)، وقررت أن أغادر هذا القبو. قويت أعصابي في الشارع مع نسيم الليل المنساب، وخفّت آلام معدتي. تذكّرت "راسكولنكوف"، بطل رواية "الجريمة والعقاب"، وشعرت برغبة في الاعتراف بكلّ شيء. ليس فقط لنفسي، بل لأسرتي أيضا، فقد تكون تلك مأساة بالتأكيد. لو كانت أعصابي قويّة فقط مثل أعصاب بعض الرجال العاديين، وسواء أكان طقس الرغبة موضع شكّ حقّا، أم لا، لكنت أحتاج فقط إلى الذهاب إلى مكان ما، كي يتحقق ذلك. إلى مدريد، أو ريو، أو سمرقند....

فقط عندئذ، جعلتني علامة بيضاء صغيرة على إفريز محلّ، أشعر بقلق. حملت شعار ماركة تجارية لأجنحة مرسومة على إطار سيارة. ذكرتني بـ"إيكاروس"، وجناحيه الصناعيين. محاولته أن يطير عاليا، وذوبان جناحيه بفعل حرارة الشمس، وكونه قد غرق أخيرا في البحر. إلى مدريد،

أو ريو، أو سمرقند – كيف يمكنني ألاّ أضحك على مثل هذا الحلم السخيف؟ لم أستطع، في نفس الوقت، التوقف عن التفكير في "أورستس"، تلك الشخصية من الأساطير الإغريقية، ابن "أجاممنون" و"كليمنسترا"، مطاردا من آلهة الانتقام.

مشيت في طريق مظلم إلى جوار القنال. ثم تذكّرت منزل والديّ العزيزين في الضواحي . كانا بالتأكيد ، ينتظران عودتي . ربّما أطفالي أيضا – لكن عندما عدت – لم أستطع مقاومة الخوف من أنّ قوّة ما تقيّدني. رفع ماء القنال الحاضن، بطبيعة الحال، قاربا شراعيا إلى جانبي. شعّ من باطن القارب ضوء خافت. لابد أنّه كانت هناك أيضا أسرة، رجال ونساء، يعيشون معا، كارهين بعضهم البعض، ولا يزال يحبّ بعضهم الآخر إلى حدّ مقبول... لكن دفعت ذهني إلى أن يستمر في المقاومة، وقررت أن أعود إلى الفندق، شاعرا بمذاق الويسكي بداخلي.

عائدا إلى المنضدة، رجعت إلى قراءتي لكتاب "رسائل مريميه". بدأت تعيد إحيائي بهدوء. اكتشفت أنّ "مريميه" كان قد أصبح في سنواته الأخيرة بروتستانتي، حدّست فجأة أنّه كان يرتدي قناعا. كان يتلمّس طريقه في ظلام، مثلنا تماما. في ظلام؟ بدأت **"مرور ليلة مظلمة"**، تتخذ أنساقا مخيفة بالنسبة لي. استدرت إلى **"حوارات مجمعة"** لـ"أناتول فرانس"، كي أنسى اكتئابي. لكن حمل "بان"، إله الغابات والمرامي، صليبا للأزمنة الحديثة أيضا...

بعد انقضاء ساعة، أحضر لي الغلام دفعة رسائل. كانت إحداها من مكتبة في "لايبزج"، تطلب منّي مقالا عن "المرأة الحديثة في اليابان". لماذا

يتوجّهون إليّ بمثل هذا الطلب؟ كانت هناك حاشية (باللغة الإنجليزية)، مكتوبة بخط اليد "نرحّب أيضا أن يكون معها بورتريه لامرأة، لكن بالأسود والأبيض، كما في الرسوم اليابانية". ذكرتني الكلمات بـ"ويسكي بلاك & هوايت". مزّقت الرسالة إلى قطع صغيرة. أزلت خاتم رسالة من الرسائل الأخرى، بشكل عشوائي تماما، وفتحت غلافها الأصفر. كانت من طالب شاب، شخص غير معروف لي. لكن وردت بعد عدّة أسطر كلمات "صور من الجحيم.."، فأزعجتني. كانت الرسالة الثالثة، التي فتحتها، من ابن أختي. بعد أن أخذت نفسا عميقا طيّبا، انهمكت في قراءة المشاكل العائلية، الخ.. لكن حتى هذه الرسالة، شدهتني بخاتمتها:

"إنني أرسل لك الطبعة الثانية، من "مختارات ضوء أحمر" ..."

"ضوء أحمر!". شعرت كما لو أن شخصا يسخر مني، فتلمست ملاذا خارج الحجرة. لم يكن هناك في الممرّ أحد. ملت مستندا بيدي على الحائط، وشققت طريقي نحو الردهة. جلست على كرسي، وقررت أن أشعل سيجارة، كانت بطريق ما من نوع "اير شيب". (دخنت فقط سجائر من نوع "ستار" منذ مجيئي إلى هذا الفندق). رفرف جناحان صناعيان أمام عينيّ مرّة أخرى. قررت أن أستدعي الغلام، وأطلب منه أن يحضر لي علبتين من نوع "ستار". لكن إذا أمكنني أن أصدّق الغلام، فانّ كلّ علب "ستار" قد بيعت لسوء الحظ.

- لكن عندنا سجائر "اير شيب" يا سيدي..

هززت رأسي متطلعا إلى ردهة الفندق الواسعة. كان هناك بعض أجانب، على مائدة في الجانب الآخر، يتحدثون. بدا أنّ أحدهم، امرأة ذات فستان أحمر، تنظر إليّ، وتتحدث إلى الآخرين همسا.

"السيدة تاونشيد.."

وصلني شيء ما، رغم ذلك، عبر الهمس، فيما وراء قدرتي على الرؤية. كان اسم السيدة "تاونشيد" غير مألوف لي، بطبيعة الحال - حتى لو كان ذلك اسم تلك المرأة هناك - نهضت، نصف مجنون من الخوف، وقررت أن أرجع ثانية إلى غرفتي.

فكّرت بعد أن عدت إلى غرفتي، أن أذهب إلى مستشفى أمراض عقلية معينة. لكن كان الذهاب إلى هناك، يعني الموت بالنسبة لي. بعد تردد طويل، بدأت قراءة رواية "الجريمة والعقاب"، كي تلهيني. كانت الصفحة، التي فتحت عليها من رواية "الأخوة كارامازوف". افترضت أنني ارتكبت خطأ في طلبي، فنظرت إلى الغلاف. "الجريمة والعقاب" - ينبغي أن يكون الكتاب هو "الجريمة والعقاب". كان هناك خطأ في الغلاف الخارجي لمجلد الكتاب إذ إنني في الحقيقة، عندما فتحت هذه الصفحة متوجّها إليها بشكل خاطئ، شعرت بأصابع قدريّة تتحرّك، كي أقرأ بشكل حتمي. لكن قبل أن أنهي مجرّد صفحة واحدة، بدأت أشعر أنّ جسمي يرتعش. كان مقطعا خاصا بتعقيب "إيڤان"، بطل رواية "الأخوة كارامازوف" حول تحقيق الشيطان. "إيڤان"، "ستريندبرج"، "دي موباسان"، وأنا، في هذه الغرفة...

النوم هو فقط ما يمكن أن ينقذني من هذه الحالة. كانت كلّ أدوية النوم قد نضبت، قبل أن أدرك ذلك. لم أستطع تحمّل العذاب دون نوم. تناولت قدح قهوة أحضر لي. قررت أن أستمر في الكتابة باهتياج شديد، بشجاعة متولدة عن اليأس. صفحتان، خمسة، سبعة، عشرة صفحات – كان المخطوط قد أطيح به. ملأت القصة بمخلوقات خارقة للطبيعة. صوّرت إحدى تلك المخلوقات نفسي. لكن الاستنزاف جعل رأسي يترنح في النهاية. انسحبت من المنضدة، واستلقيت على ظهري في الفراش. لابد أنّي نمت أربعين أو خمسين دقيقة. شعرت بشخص يهمس في أذني، "الشيطان موت"، وهو ما أيقظني، وجعلني أقف.

يدأ النهار ينبلج متشظيا خارج النافذة. وقفت عند الباب، وتطلعت حولي في الغرفة الخالية. لاحظت من خلال لوح زجاج النافذة، فيما وراء غابة أشجار الصفصاف الصفراء، مشهدا صغيرا للبحر. ذهبت إلى النافذة ببعض الجبن، كي أجد أنّ ما كشفت عنه الصورة، كان نجيلا ذابلا في الحديقة، وحمام سباحة. لكن الصورة، التي جاءت إلى ذهني، أثارت فيّ نوعا من حنين إلى البيت.

قررت أن أذهب إلى البيت، بعد أن هاتفت في التاسعة تماما، واحدة من شركات المجلات، ووجدت مصدرا لبعض الدخل. رتبت ثانية كتبا، أوراقا، وملابس، في حقيبتي على المنضدة.

(6) طائرة

أخذت سيارة من محطة السكك الحديدية لخط "توكايدو" إلى منتجع صيفي بعيد نسبيا. كان السائق يرتدي، لسبب ما، معطف مطر قديمًا رغم الطقس البارد. شعرت بشيء غريب من هذه المصادفة، حاولت بقدر الإمكان الاستمرار في التطلع من النافذة حتى لا أراه. رأيت موكب جنازة يمرّ، ربّما على امتداد ممرّ قديم، فيما وراء مكان نمت فيه أشجار صفصاف صغيرة. بدت هناك في الموكب فوانيس بيضاء، أو فوانيس الضريح. بينما راحت تتمايل بصمت، قبل وبعد التابوت، زهور صناعية ذهبية وفضية...

حين وصلت أخيرا إلى المنزل، حصلت على عدّة أيام هادئة تماما، وشكرا لزوجتي وأطفالي والمسكنات. كما أتاح الدور العلوي مشهدا متواضعا للبحر فيما وراء غابات وأشجار الصفصاف. قررت أن أعمل في الصباحات فقط. سمعت هديل حمام، عند منضدة بالدور العلوي. كانت هناك أيضا عصافير وغربان، بالإضافة إلى الحمام، حطّت على الشرفة أيضا. مثّل ذلك فرحا بالنسبة لي. "يدخل طائر العقعق الصالة" – ظللت أحمل قلما في يدي. كلما أتى؛ لأنّ الكلمات سرعان ما تأتي أيضا.

ذات عصر دافئ في يوم غائم، ذهبت إلى محلّ لشراء بعض الحبر، الحبر الوحيد الذي كان لديهم، هو حبر الـ"سبيدج". يجعلني حبر الـ"سبيدج" أكثر قلقا من أيّ حبر آخر! كان عليّ أن أغادر المحل، وأتجوّل وحدي على امتداد الطريق المزدحم. شهدت أجنبيا، يقترب من الأربعين، وقد مضى متبخترا. كان سويديا، يعيش في الجوار، ويعاني من جنون العظمة. كان اسمه "سترندبرج". حين مررت به، أثقل الحدث بشكل طبيعي عليّ.

كان الطريق يتكوّن من عدة مبانٍ فقط. لكن أثناء سير تلك المسافة، مرّ بي كلب، أسود الجانب، أربع مرّات. تذكّرت "ويسكي بلاك & هوايت"، وأنا أستدير عن الركن. وتذكّرت أيضا ربطة عنق "سترندبرج"، التي كانت أيضا سوداء وبيضاء. لا يمكن أن يكون ذلك مجرّد صدفة. وإذا لم تكن، شعرت كما لو أن رأسي تلاشى. توقفت لوهلة. انطرح إناء زجاجي، وراء سياج من السلك بجوار الطريق، مشكلا قوس قزح ملوّن خافت. طبعت على قاعدة الإناء علامة مثل جناح. هبط عدد من العصافير من قمم أشجار الصفصاف. لكن حين اقتربت منها، فإنّ كلا منها، كما لو باتئلاف عادي، طارت معا مبتعدة إلى السماء..

ذهبت إلى منزل والد زوجتي، وجلست على كرسي في الحديقة من نبات أسل الهند. هام عدد من دجاج "اللجرن" الأبيض بهدوء، في قنّ دجاج من السلك، في أحد جوانب الحديقة. رقد عند قدمي كلب أسود. حاولت أن أجيب عن سؤال لا يستطيع أحد أن يدركه. كنت هادئا ظاهريا، بينما كنت أتحاور مع أم زوجتي وأخيها الأصغر:

- الجوّ هنا هادئ تماما.

- حسنا، أهدأ من طوكيو على أيّة حال .

- أتكون هنا، ضوضاء بالجوّ، أحيانا؟

- هذا جزء من العالم، كما تعرف.

بهذا القول، ضحكت أمّ زوجتي. كان المنتجع هذا الصيف، حقا، جزءا من العالم. تأتّى لي أن أعرف خلال السنوات الماضية أو ما قاربها، كم هي

كثيرة الجرائم والمآسي، التي حدثت حتى هنا. طبيب حاول أن يقتل مريضا بالسم ببطء، أشعلت امرأة عجوز النار في منزل فردين متبنيين، كما حاول محامٍ أن ينتزع ملكية أخته الأصغر من ميراثها. يعني مجرّد النظر إلى منازلهم، بالنسبة لي، أن ترى جحيم الحياة فقط.

- هناك مجنون في هذه المدينة. أليس كذلك؟
- ربما تعني "هـ". إنه ليس مجنونا. لقد أصبح معتوها.
- ماذا يسمّى العته المبكر. إنه يجعلني دائما متوعّك المزاج.
- تشعر بتوعّك في مزاجك.. ينبغي أن تصبح أقوى من ذلك .
- أنت أقوى مني، رغم ....

شارك معنا، أخو زوجتي الصغير، غير الحليق من فراش مرضه، غير متأكد، كالمعتاد:

- أنا ضعيف، لكنّي قويّ بشكل ما..
- حسنا، إنّ هذا سيّئ تماما .

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام بتجهّم، وأنا أنظر إلى أمّ زوجتي. كان الأخ، أيضا، يبتسم وهو يحدّق إلى غابات الصفصاف، فيما وراء السياج، متبادلا التحديق بعقل غافل. (بدا لي الأخ الأصغر النابه أحيانا، كأنّه روح فرّت من جسدها) .

- أكون روحيا على نحو غريب، ولديّ في نفس الوقت مثل هذا الوجود البشري الكثيف .

- أحيانا إنسان خيّر، وأحيانا إنسان شرير .
- لا، بل شيء مختلف تماما عن الخير والشر .
- مثل طفل داخل فرد بالغ.
- لا يشبه ذلك تماما. لا أستطيع أن أعبّر بوضوح .. ربّما يشبه أكثر قطبي الكهرباء. على أيّة حال، لديّ شيئان مختلفان تماما، يعملان معا.

ما أذهلني في تلك اللحظة، كان زئير طائرة. تطلعت لأعلى، رغما عنّي، كي أجد طائرة تطير بشكل منخفض تماما، بدت كمن ترعى قمم أشجار الصفصاف. كانت طائرة مصغرة غير معتادة بجناحيها المطليين باللون الأصفر. انذهلت الدجاج والكلب أيضا، وهرولت إلى شتى الاتجاهات. اختبأ الكلب أسفل الشرفة، وهو ينبح.

- ألن تسقط تلك الطائرة؟
- إطلاقا ..هل تعرف مرض الطائرة؟

هززت رأسي، بدلا من أقول لا، وأنا أشعل سيجارا.

- ما إن يركب الناس تلك الطائرات، حتى يتنفسوا هواء طبقات الجو العليا طوال الوقت، ويقال إنهم يصبحون بالتدريج غير قادرين على الحياة على الهواء الموجود، هنا، بأسفل...

تمشيت بين أشجار الصفصاف، التي لم تهتزّ فروعها ولو مرّة، منذ أن غادرت منزل أمّ زوجتي. وجدت نفس تدريجيا محبطا. لماذا اتخذت تلك الطائرة، ذلك المسار فوقي فقط ، وليس مسارا آخر؟ لماذا كان لديهم

سجائر "إير شيب" في ذلك الفندق؟ تصارعت مختلف تلك الأسئلة، فسرت في شوارع مختارة بسبب من عدم وجود إشارات حياة فيها.

كان البحر رماديا، وملوّنا، فيما وراء تلك الرمال. انتصب على الشاطئ الرملي هيكل أرجوحة، دون وجود أرجوحة عليه. استدعت رؤيته النوارس فورا إلى ذهني، وحطّت عليه عدّة غربان. نظرت جميعا إليّ، دون أن تظهر أية بادرة على التحليق. رفع غراب، في المركز، منقاره إلى السماء، ونعق أربع مرّات.

تمشيت على امتداد الشاطئ بنجيله الذابل، قررت أن أبتعد على امتداد ممرّ مرتفع عنده عدّة فيلات. كان يفترض أن يوجد على يمين الممر منزل من طابقين على الطراز الغربي، منتصبا أبيض اللون بين أشجار الصفصاف العالية. (أسماه صديق عزيز لي "مقر الربيع"). لكن بمروري عليها، لاحظت فقط حوض استحمام على قاعدة صلبة. خطرت فكرة نار على بالي بسرعة. مشيت قدما للأمام، محاولا ألاّ أتلفت. كان رجل على دراجة مرتديا قبعة صيد بنيّة اللون، قادما مباشرة باتجاهي، عيناه ثابتتان بغرابة، منحنيا على المقبض. شعرت، بشكل غير متوقع، بوجه زوج أختي على وجهه، فقررت أن أبتعد عن مساره قبل أن يصل إليّ. لكن في وسط المسار، رقد جسد خلد ميّت على جانبه.

جعلني ذلك الشيء، الذي كان يستهدفني، قلقا أكثر مع كلّ خطوة. بدأت التروس نصف الشفافة تتكتل تدريجيا أمام ناظري. ظللت أمشي، محافظا على رقبتي متصلبة، خشية أن تكون لحظتي الأخيرة قد دنت أخيرا.

بينما كانت التروس تتكاثر في العدد، بدأت أيضا في الدوران. وبدأت، في نفس الوقت، غابة أشجار الصفصاف إلى يميني تبدو كما لو أنها مرئية عبر قطع زجاجي جميل ذي أفرع مجدولة بهدوء. شعرت بقلبي يرتجف، وحاولت أن أقف في الممرّ عدّة مرّات. لكن لم يكن سهلا حتى أن أتوقف، كما لو كنت مدفوعا بواسطة شخص ما.

بعد حوالي ثلاثين دقيقة، كنت بالدور العلوي، مستريحا على ظهري، معانيا من صداع حاد، وعيناي مغمضتان بثبات. ثم، من وراء رمشي عينيّ، بدأ في الظهور جناح مكسو بريشات فضيّة مثل أصداف السمك. كان من الواضح أنّه انعكس على شبكية عيني. تطلعت، فاتحا عيني إلى السقف. قررت أن أغلق عينيّ ثانية، مؤكدا أنه لا يوجد مثل هذا الشيء هناك. لكن الجناح الفضي عاد بالتأكيد مع الظلام، تماما، كما كان من قبل. ثم تذكّرت أن هناك جناحا أيضا على هوائي سيارة الأجرة، التي أخذتها ذلك اليوم....

صعد شخص ما السلالم مهرولا، وجرى مقعقعا بسرعة. نهضت فورا، منذهلا من إدراكي أنها كانت زوجتي. هبطت إلى غرفة الجلوس، التي تقود السلالم إليها. استكان وجه زوجتي، التي بدا أنّها كانت تعاني من قصور في التنفس. كانت ترتعش عند كتفيها.

– ماذا حدث؟

– لا، لا شيء...

رفعت وجهها أخيرا، وأجبرت نفسها على الابتسام، وهي تتحدث:

- لا شيء.. لقد تبادر إلى ذهني، يا بابا، أنّك على وشك أن تموت..

كانت تلك هي التجربة الأكثر رعبا في حياتي.. لم أعد أمتلك القوّة على الاستمرار في الكتابة. إنّه أمر مؤلم لا يمكن التعبير عنه، أن تعيش في مثل هذا الإطار الذهني. أليس هناك من يأتي، ويخنقني بهدوء أثناء نومي؟

كتاب القدر : زديج
حكاية شرقية

1- العين العمياء

عاش "زديج" في "بابل" خلال عهد الملك "مؤبدار". كان "زديج" فتى غنيّا، كريم النفس، يحترم الآخرين دون أن يسعى إلى تسفيه آرائهم رغم أنّه يمتلك علما غزيرا وذكاء نادرا. كما كان حكيما بعد أن نهل من حكمة القدماء، حريصا في نفس الوقت على معاشرة الحكماء من أهل مجتمعه.

كان "زديج" يحلم أن يحقق حلم سعادته بالزواج من "سمير" التي تتمتع بين فتيات بابل بأصالة المولد، والجمال الباهر، والثروة الفائقة. خرجا يتنزهان، ذات يوم، تحت ظلال النخيل على شاطئ نهر الفرات، وإذا بنفر من أتباع الفتى "أوركان" يحيط بهما. كان "أوركان" يطمع في "سمير" ويرى نفسه أحقّ بها بالزواج من "زديج"، وربّما أعمته الغيرة، فحاول اختطافها ممّا نتج عنه إصابتها فسال دمها، لكنها لم تكن تهتم بنفسها قدر اهتمامها بـ"زديج"، الذي دافع عنها بشجاعة وقوّة مستميتا في دفاعه مع عبدين تابعين له، صمدوا بصبر وإباء أمام تلك الهجمة الضارية حتى كتب لهم النصر، فحمل "سمير" التي انهارت مغشيا عليها إلى القصر، وحين رجعت إلى وعيها كان أوّل من بحثت عنه عيناها هو حبيب القلب "زديج"، الذي اعترفت له بحنان بالغ بأنّها تدين له بحياتها وشرفها.

كان جرح "سمير" بسيطا فكتب لها الشفاء خلال فترة يسيرة. أمّا جرح "زديج" في وجهه الذي نتج عن اصابته بسهم قرب أحدى عينيه، فكان عميقا وخطيرا. وفي الوقت الذي كانت "سمير" تبكي فيه بكاء مرّا وتدعو الآلهة بشفاء حبيبها، ظهر دمّل في العين الجريحة منذرا بخطر داهم، فأسرعوا باستدعاء أعظم أطباء ذلك العصر، الطبيب "هرميس" الذي أعلن بعد أن فحص الجرح والدمّل أنّه سيفقد عينه، ولم يتوقف عند ذلك الحدّ، بل حدد ساعة ويوم حدوث تلك الكارثة.

عمّ الحزن أرجاء بابل حزنا وتعاطفا مع مأساة "زديج"، لكن سرعان ما حدث أمر غريب، إذ بعد يومين فقط انفجر الدمّل من تلقاء نفسه دون أيّ تدخّل خارجي، فشفيت عين "زديج" شفاء تاما، عندئذ انصرف تفكيره إلى من امتلكت عليه قلبه وقرر زيارتها في الريف بعد أن عرف بأنها مضت إلى هناك منذ ثلاثة أيّام. لكنه عرف خلال الطريق بأنّها ما أن أيقنت أنه سيفقد احدى عينيه حتى أعلنت بوضوح أنها لا تحتمل العمى، وأقبلت على الطرف الآخر "أوركان" فتزوجته، وهو ما أحزن "زديج" حزنا كاد يودي بحياته، لكن العقل انتصر على الحزن، وقرر بعد تجربته مع الثريّة الجميلة ابنة القصر أن يختار زوجة من أبناء الشعب، فاختار "أزورا" التي كانت من أكثر بنات الشعب حكمة وعقلا، وتزوّجها.

2 – الأنف

رجعت "أزورا" من نزهتها ثائرة غاضبة، فاستفسر منها "زديج" عن سبب ثورتها، فأخبرته أنها ذهبت تعزّي أرملة شابة في فقد زوجها الشاب. كانت الزوجة قد عاهدت الآلهة أثناء دفن زوجها على أن تقيم على قبره

طالما استمرّ جريان الماء متدفقا في جدول قريب. عقب "زديج" بأنّها أحبّت زوجها فعلا، ففاجأته "أزورا" بأنّها اندهشت حين رأتها تغيّر مجرى الجدول ولم يمض على وفاة زوجها سوى يومين، وانفجر غضب "أزورا" مرّة أخرى.

كان لـ"أزورا" صديق أمين تؤثرة يدعى "كادور" وهو أيضا صديق لـ"زديج". حكى له "زديج" ماحدث ورتب معه أمرا اتفق على أن يكون بينهما فقط.

كانت زوجته عائدة في اليوم الثالث من زيارة إحدى صديقاتها في الريف، وعند وصولها إلى البيت أخبرها الخدم متحبين بأنّ زوجها قد مات فجأة، ولم يخبروها في حينها حتى لا ينغّصوا عليها استجمامها في الريف، وأنهم قد دفنوه في الحديقة، فاندفعت في بكاء حار وهي تكاد تنتزع شعرها من منابته.

زارها في المساء "كادور" مواسيا فبكيا معا، وفي اليوم التالي بكيا أقلّ، وتناولا الغداء معا، ثم أخبرها بأنّ "زديج" قد أوصى له بمعظم ثروته مضيفا بأنّه يفضّل أن يقاسمها تلك الثروة، فغضبت وثارت ثم لانت وهدأت. وعلى العشاء اشتكى "كادور" من ألم رهيب في الطحال، ثم زاد ألمه دون أن تجد "أزورا" لديها ما يخفف عنه أو يداويه، ولما استفسرت منه عن علاج لذلك الألم، أجابها بأنّه ليس هناك من علاج سوى أن يوضع على جنبه أنف رجل مات بالأمس، فاندهشت فأخبرها بأنّ ذلك يشبه علاج الفالج بالتمائم.

صمتت "أزورا" لوهلة ثم تذكّرت زوجها الذي مات بالأمس، وفكّرت في انّ روحه لن تتأثر لو قصر موضع أنفه قليلا، ثم أخذت موسى وذهبت إلى قبر زوجها، واقتربت تريد أن تجدع أنفه، فنهض "زديج" حاميا أنفه بيد، مبعدا الموسى باليد الأخرى، وهو يخبرها ألا تلوم الأرملة لأنّ جدع الأنف مثل تغيير مجرى الجدول!

3 - الكلب والجواد

اضطر "زاديج" بعد فترة من المعاناة إلى أن يطلّق "أزورا" بحثا عن سعادة من نوع آخر في دراسة الطبيعة من نبات وحيوان وطقس. وتفرّغ لتلك المهمة معتزلا في دار ريفية على شاطئ نهر الفرات، وبدأ يغوص في عالم الطبيعة منتشيا باكتشاف خصائص الحيوان والنبات لم تر فيها الناس الا جانب التشابه.

وبينما كان يتمشى ذات يوم قرب غابة صغيرة شاهد خصيا من خصيان الملكة يتبعه مجموعة من الحرس يبدو عليهم قلق شديد، وسرعان ما سأل الخصي "زديج" عمّا إذا كان قد شاهد كلب الملكة، فرد "زديج" بأنها كلبة وليست كلبا، وقد ولدت منذ فترة قصيرة، ولها أذنان طويلتان، وهي تظلع برجلها الأمامية اليسرى. عندئذ استنتج الخصي أنه رآها، لكن "زديج" نفي ذلك نفيا تاما.

وفي نفس الوقت أقبل كبير الساسة مع بعض من أصحابه يسألون "زديج" عمّا إذا كان قد رأى أجمل خيل الملك بعد أن أفلت من يد سائسه وأنطلق مبتعدا، فأجاب "زديج" بأنه فعلا أفضل الجياد ركضا لأنه يرتفع

في الجوّ خمسة أقدام، وله ذيل طوله ثلاثة أقدام ونصف. فأيقن كبير الساسة أنه رآه، لكن "زديج" نفى ذلك نفيا تاما. رغم ذلك، لم يشكّ الخصي وكبير الساسة في أن "زديج" قد سرق كلبة الملكة وحصان الملك، فقبضا عليه واقتاداه إلى جماعة القضاة الذين حكموا عليه بالجلد وأن ينفى إلى سيبيريا. وبعد صدور الحكم وجد الباحثون الكلبة والجواد، واضطر القضاة إلى تغيير حكمهم لكنهم حكموا عليه بغرامة استطاع بعد سدادها أن يدافع عن نفسه بأنه كدارس للطبيعة رأى على الرمل آثار حيوان تفرّس فيها فتيقن أنّها آثار كلب صغير، ثم رأى خطوطا خفافا طوالا قد طبعت على مرتفعات صغار بين آثار الأرجل فعرف أنها كلبة، وشاهد آثارا في اتجاه آخر مجاورة لآثار الرجلين الاماميتين فعرف أن للكلبة أذنين طويلتين، كما لاحظ أن الرمل أقل تأثرا بإحدى الأرجل منه بالثلاث الأخرى فخمن بأنّها عرجاء. أما بالنسبة للجواد فقد رأى سنابك الجواد تقع جميعا على مسافات متساوية ففهم أنه فرس كامل الركض، ورأى تحت شجرة مهدا يرتفع خمسة أقدام وتحته على الأرض أوراق شجرة حديثة عهد بالسقوط، فعرف أنّ الجواد قد مسّ الغصون وأسقطه من ارتفاع خمسة أقدام.

أعجب القضاة بمهارة "زديج" ورفعوا الأمر إلى الملك والملكة، فأمر الملك بأن تردّ إليه الغرامة بعد خصم مصاريف القضاء منها.

4 – الحسود

كثيرا ما اجتمع أعظم الرجال وأجمل النساء في دار "زديج"، حيث كان يقيم لهم حفلات وولائم ويدور بينهم حديث عذب دون تكلف. وكان يقيم أمام داره "أريماز"، ذلك الرجل الحقود الذي لم يكن له صديق، ويحقد

على "زديج" أشد الحقد، بل وراح يتحيّن الفرص لتدميره. وذات يوم زار الحسود "زديج" في داره، وكان يتجوّل في الحديقة مع صديقين وسيدة حسناء، ودار الحديث بينهم حول حرب حديثة انتصر فيها الملك، وقد أشاد "زديج" بشجاعة الملك وكتب أبياتا من الشعر على لوحة صغيرة يثني عليه فيها. وعندما طلبوا منه أن يقرأها رفض تواضعا وحطم اللوحة الصغير إلى جزأين ألقاهما بين بعض الورود. وقد انتظر الحسود حتى غادروا المكان فجرى إلى موضع الورود فوجد جزءا واحدا من اللوحة عليه كلمات مبتورة صوّرت أبشع هجاء للملك، فأبلغ الملك بها فألقي بـ"زاديج" وصاحبيه والسيدة في السجن. لكن شاءت عدالة السماء أن يجد ببغاء الملك خوخة سقطت من إحدى الأشجار فالتصقت بالجزء الثاني من اللوحة، فأمسك بالخوخة وتحمّل ثقل جزء اللوحة الثاني حتى وضعها في حجر الملك. اندهش الملك لكنه اهتم بها لاهتمامه أساسا بالشعر، وحين رأت الملكة ذلك الجزء تذكّرت الجزء الأول من اللوحة فأحضرته ووضعتهما إلى جوار بعضهما فاتحد الجزآن مكونين لوحة كاملة قرأ الملك عليها أبيات شعر "زديج" التي تمتدحه، فأفرج عنه وكافأه بثروة الحسود المصادرة، لكن "زديج" بروحه السامية ردّها إليه، وازدادت روابط الصداقة متانة مع الملك والملكة.

5 – قوة سماحة النفس

يقام عيد في بابل كلّ خمسة أعوام، يعلن فيه الملك اسم الرجل الذي أنجز عملا يدلّ على الكرم. كان العظماء والكهّان هم القضاة الذين يعرض عليهم محافظ المدينة خير الأعمال التي قام بها المواطنون خلال تلك الفترة

المنصرمة، فيتداول القضاة الأمر فيما بينهم، ثم يعلن الملك النتيجة التي ينال فيها الفائز كأسا من الذهب الخالص مرصّعة بجواهر نفيسة.

كانت المنافسة النهائية قد انحصرت بين أربعة أفراد، الأول قاض تنازل عن كلّ ثروته للخصم الذي أخطأ في حقه خطأ غير مقصود، وكانت ثروته تعادل ما خسر الخصم. الثاني فتى يحبّ فتاة كلّ الحب ويريد أن يتخذها زوجة، لكنه عرف أن لها حبيبا تحبّه يكاد يهلكه الحبّ فتنازل له عنها وقدّم مهرا إكراما لها. الثالث جندي اختطف جنديان من جيش العدو خليلته فراح يحاول استردادها، حين وصله أن جنودا آخرين من جيش العدو يحاولون أن يختطفوا أمه وهي غير بعيدة من موقعه فأسرع إليها وأنقذها، ثم رجع إلى حبيبته فوجدها تحتضر فحاول أن يقتل نفسه، لكن أمّه أوضحت له أنّه عائلها الوحيد فكانت له شجاعة احتمال الحياة في سبيل أمّه.

والرابع هو "زديج" الذي أثنى في حضرة الملك على وزير مقال غضب منه الملك غضبا شديدا، وهو ما يعتبر فعل سماحة نفس لم يجرؤ غيره على القيام به منذ زمن بعيد.

وكان رأي الملك أن يمنح كلّ واحد من الأبطال عشرين ألف دينار ذهبا، لكنه خصّ بالكأس "زديج".

6 - الأحكام

اختار الملك "زديج" ليشغل منصب وزيره الأكبر، فلم يفرض رأيه على الوزراء، وترك لكلّ وزير أن يعبّر عن رأيه بحرّية. وعندما كان يحكم يترك الأمر للقضاء، لكنه يلطفه إذا رأى فيه غلوا. وكان يمتاز بالحرص على إبراز الحقيقة مهما كان الثمن.

من القضايا التي حكم فيها بالعدل، قضية كاهنين اختلفا حول أيهما أحق بالزواج من فتاة عظيمة الثراء لها طفل وحيد تأمل أن تربيه في كنف زوج صالح. سأل "زديج" الرجلين المرشحين عمّا يريد كلّ منهما أن يعلم الطفل؟ قال الأول أنه سيعلمه الخطابة والمنطق والفلك وحقيقة الجوهر والوحدات التي يتكوّن منها الكون، وقال الثاني **"سأحاول أن أجعله عدلا خليقا بأن يكون له أصدقاء"**. ودون ذرّة تردد حكم "زديج" للثاني بالزواج من الفتاة وأن يكون أبا للطفل.

ازداد إعجاب أهالي بابل بـ"زديج" إعجابا شديدا فكانوا يقبلون على ما يقبل عليه، حتى الكهنة أنفسهم اعترفوا بأنّه يحيط بالعلم أكثر ممّا يحيط به عظيمهم "يبيور".

من أمثل عدله ما حدث عندما انقسم أهالي بابل إلى فريقين يتخطى أحدهما عتبة المعبد بقدمه اليسرى ، بينما رأى فريق ثان أنّ الصحيح هو الدخول بالقدم اليمنى، وراحوا ينتظرون مقدم العيد الأكبر للنار المقدسة ليروا كيف سيدخل "زديج" إلى المعبد. لكن "زديج" دخل المعبد وثبا ثم أوضح بعد ذلك في خطبة رائعة أنّ إله السماء لا يؤثر قدما على قدم سواء أكانت اليمنى أم اليسرى.

7 – قوة الغيرة

تأثرت الملكة "استارتيه" بشباب "زديج" وظرفه تأثيرا لم تنتبه له فنمى حبّها في ظلّ براءة اللقاءات التي كانت تجمع بين ثلاثتهم معا. كانت تستمتع بغير تحفظ بالنظر والاستماع إلى شاب عزيز على زوجها الملك وعند



الدولة كلها، وكان كلّ شيء يساعد على أن ينفذ إلى قلبها سهم الحبّ الذي لم تكن تشعر به. كانت تعتقد أنها تتكلم إليه كما تتكلم الملكة إلى وزير ارتضت عمله. ومن ناحيته كان الشعور متبادلا، لكنه سرعان ما فطن إلى حقيقة مشاعره، فقاوم واستعان بالفلسفة التي لم تمدّه هذه المرّة إلا بالمعرفة دون أن تخفف عنه، حتى أصبح لا يجرؤ على التحدّث مع الملكة بيسر كما كان يحدث سابقا. وعندما تصاعد الأمر وأصبح محفوفا بالمخاطر أفصح عنه إلى صديقه "كـادور" فأفهمه أنه قد قرأ مكنون قلبه قبل أن يخبره. ولكن كيف ستكون حال الملك وهو أشدّ الناس غيرة إذا تسرّب الشكّ إلى نفسه؟

وكانت الحمرة تعلو وجه الملكة كلما ورد ذكر اسم "زديج" على لسانها، وقد تتحمس حينا ثم تنقطع عن الحديث حينا آخر، وتغرق في تفكير عميق حينا ثالثًا. حتى أثار الملك ما يحدث، فصدّق كل ما رأى وتخيّل كلّ ما لم ير. ولاحظ بشكل خاص أن حذاء امرأته كان أزرق وأن حذاء "زديج" كان أزرق أيضا، وأن شرائط الملكة كانت صفراء، وأن قلنسوة "زديج" كانت صفراء. وحين وصلته وشاية من زوجة الحقود عبارة عن رباط أزرق يشبه رباط جورب الملكة، تحوّل الشكّ إلى يقين، فلم يفكّر الملك إلا في الانتقام، وقرر في ذات الليلة أن يميت الملكة بالسمّ وأن يشنق "زديج"، وأصدر أمره بذلك إلى أحد خصيانه القساة، ولحسن الحظ سمعه خصي آخر كان يخالط الملك لكنـه يحبّ الملكة و"زديج" حبّا كبيرا، ورغم أنّه كان أخرس لا يعرف الكتابة إلا أنّه كان يجيد الرسم فرسم صورة بما سمع ودفع بها لوصيفة الملكة التي أوصلتها للملكة فلم تتردد في إرسالها إلى "زديج"

داعية إياه إلى ضرورة الارتحال فورا. فلما وصلته الرسالة أطلع عليها صديقه الوحيد "كادور" الذي نصحه بأن يتحرّك من فوره إلى "ممفيس" وسيخبر رجال الملك أنّه في طريقه إلى الهند، ولم يتركه إلا بعد أركبه دابة سريعة خفيفة الحركة، سرعان ما غابت على الطريق المرسوم.

8 - المرأة المضروبة

مضى "زديج" في طريقه نحو حدود مصر، موزّع الذهن بين فلسفة رفيعة تتيح له أن يتأمّل الكون ، وألم فادح كلما تذكّر "استارتيه" وما قد تكون تعرضت له من أهوال بعد رحيله، وإذا به يشاهد غير بعيد عنه في الطريق امرأة تستغيث بالأرض والسماء وهي تستعطف رجلا مصريّا يشبعها ضربا وشتما، فخمن "زديج" بأن الرجل ربما كان غيورا أخرجته الغيرة عن طوره وربّما كانت المرأة خائنة. لكن حين فاجأه جمال المرأة وهي تحضّه على أن ينقذها من شرّه، فاندفع لقتاله وبدأ بينهما صراع عنيف. كان المصري قويّا ملك عليه الغضب كلّ نفسه و"زديج" ماهرًا يحكّم عقله فيما يفعل، وكان منطقيا أن ينتصر "زديج" ويضع السيف على صدره، فاستلّ المصري خنجرا طعنه به، وفي اللحظة التي قرر فيها "زديج" أن يطلق سراحه اضطر إلى قتله.

الغريب في الأمر أن المرأة بعد قتل معذبها بدأت تلومه لأنّه قتل من أحبّت وعشقت، فاندهش "زديج" ممّا سمع وابتعد عنها، وسرعان ما رأى أربعة رجال من بابل يحيطون بها فناشدته أن ينقذها مرّة أخرى، لكنه كان قد استفاد من الدرس السابق، واستمر في طريقه إلى مصر.

9 - الأسيرة

ما إن اجتاز "زديج" حدود القرية المصرية حتى التف حوله الأهالي صارخين بأنّه من اختطف "ميسوف" الحسناء وقتل "كليتوفيس"، فأوضح أنّ "كليتوفيس" كان يضربها ضربا مبرحا وأنه لم يقتله عمدا بل دفاعا عن النفس، و"أنا رجل غريب جئت لاجئا مستجيرا بكم". وكان المصريون أصحاب عقل ورحمة فقبضوا عليه وحققوا معه فلمّا تأكّدوا من صدق روايته حكموا عليه أن يصير عبدا نظرا لإراقته دمّ إنسان، وجرى عرضه مع خادمه للبيع، فاشتراهما تاجر عربي يسمّى "سيتوك"، وكان العبد أغلى ثمنا من سيّده وقد فضله التاجر على "زديج" خلال بداية الرحلة لكونه يحتمل المشقة على عكس سيده. وراح "زديج" يفكّر كيف تتقلب به الأقدار في دورات غريبة، وفاجأه سؤال لم لا يكون عبدا ألا يعتبر رجلا مثل غيره من الرجال. وسرعان ما انتقل تفكيره إلى الملكة "استارتيه"، وانشغل بها.

لاحظ "زديج" خلال الرحلة إعجاب التاجر بالخادم لقدرته على تحسين وضع الأحمال على ظهور الإبل، وعندما مات جمل وزعوا حمولته على الخدم فمشوا منحنين تحت ثقل الاحمال، فكانت فرصة انتهزها "زديج" ليفسّر للتاجر سبب الانحناء وقوانين التوازن واختلاف خصائص المواد، فارتاح التاجر إليه وقدّمه على خادمه.

عندما وصلوا إلى مضارب القبيلة، كان ذلك هو موعد وفاء يهودي لدين للتاجر "سيتوك" اقترضه أمام شاهدين، لكن الشاهدين ماتا فاستغلّ اليهودي فرصة موتهما وأنكر الدين. وبعد أن استفسر "زديج" من التاجر

عن تفاصيل دفع الدين، طلب منه أن يسمح له بتولي تلك القضية أمام القضاء فقبل الرجل. ووقف "زديج" أمام القاضي معلنا أن الدين قد تمّ أمام شاهدين وصخرة عريضة ذات أثقال. "أما الشاهدان فماتا لكن الصخرة باقية، وقد أرسلت من يحملها على نفقة سيدي "سيتوك"". وبعد انقضاء وقت طويل تساءل القاضي عن السبب في عدم وصول الصخرة فضحك اليهودي قائلا بأنّ الصخرة لن تحضر ؛ لأنّها على بعد ستة أميال ولا يستطيع أن يحوّلها عن مكانها أقل من خمسة عشر رجلا، فصاح "زديج" بأنّ ذلك يعني اعترافا ضمنيا بالدين لأنّ هذا الرجل يعرف مكان الصخرة بتفاصيل أثقالها، فبهت اليهودي واضطر في النهاية إلى الاعتراف.

10 - كوم كئيب

توطدت العلاقة بين "زديج" والتاجر "سيتوك" فصار أنيسا لا يمكن الاستغناء عنه. وكان التاجر خيّرا رحيما، لكن ما أثار "زديج" هو أن سيّده يعبد الشمس والقمر والنجوم كما اعتاد العرب، فأوضح له ذات ليلة أنها جميعا ليست إلا أجساما لا تختلف عن الشجر أو الصخور، فأعلن "سيتوك" أنها كائنات خالدة تحقق منافعنا كلها، فجادله "زاديج" بأنّ البحر الأحمر يحقق من المنافع ما يفوقها، فحسم "سيتوك" المناقشة بقوله بأنّ النجوم مشرقة بشكل يفرض عليه عبادتها. وعندما حلّ الليل أشعل "زديج" عددا كبيرا من المصابيح في الخيمة التي سيتناول فيها العشاء مع "سيتوك"، فلما وصل جلس "زديج" مباشرة إلى المائدة داعيا ضوء المصابيح المشرق إلى أن يوفقه دائما لما يريد. عندئذ تساءل "سيتوك" مندهشا عمّا يجري، فأجابه "زديج" بأنّه يفعل مثله، فيعبد هذه المصابيح، ويهمل

الخالق الذي خلقها، ففهم "سيتوك" فحوى الإشارة وأعرض عن عبادة تلك المخلوقات متفرّغا لعبادة الذي خلقها.

وكانت تتحكم في بلاد العرب في تلك الأيام عادة غريبة، تقضي بأنّه إذا مات رجل وأرادت زوجته أن تكون قديسة فإنّها تحرق نفسها في حفل كبير يسمى حريق الترمّل. وكان قد مات رجل من قبيلة "سيتوك" فقررت زوجته "آلمونا" أن تتبعه. أوضح "زديج" لـ"سيتوك" أن تلك عادة ذميمة لا تليق بالجنس البشري، وتحرم المجتمع من أمهات كان يمكن أن يربين أبناءهن تربية صالحة ؛ لذلك ينبغي إلغاؤها. اعترض سيتوك" بأنّ تلك العادة تحولت بفعل الزمن إلى قانون مقدّس، فأخبره "زديج" بأنّ العقل أقدم من أيّ عادة، وأنّ عليه أن يحدّث شيوخ القبيلة بينما سيتوجه هو إلى الأرملة الشابة. وحين ناقشها عرف أنها لم تحبّ زوجها يوما لأنّه كان غيورا صعبا لا يحتمل، لكنها تقبل أن تحرق حتى لا تتعرض للسخرية وهي تقيّة، فأخبرها "زديج" بأنّها تحرق نفسها إرضاء لغيرها، وأن الغرور هو الذي يدفعها إلى ذلك. ومازال يحاورها حتى اقتنعت، فتحوّل إلى شيوخ القبيلة وناشدهم أن يصدروا قانونا يحرّم أن تحرق الأرملة نفسها عقب موت زوجها، وظلّ يحاورهم حتى اقتنعوا. وبدءا من تلك اللحظة تلاشت تلك العادة الغريبة ودانت بلاد العرب لـ"زديج" بهذه المكرمة.

11 – ضيافة ليلية

صحب "سيتوك" "زديج" إلى سوق البصرة حيث يلتقي أكبر التجار من جميع بلاد الأرض. وفي اليوم التالي جلس "زديج" إلى مائدة عشاء تضمّ جماعة متنوعة فيهم المصري والهندي واليوناني والكلتي وآخرون من أقطار

مختلفة، ودار بينهم حوار حول الأديان وتعصّب كلّ فرد لعقيدته حتى احتدم النقاش وبدأ يتحوّل إلى خصومة، عندئذ نهض "زديج" وبدأ يهدئ النفوس الثائرة موضّحا أنّهم كادوا يختصمون في غير طائل لأنّهم جميعا متفقون، وكلّ منهم على صواب بالنسبة لعقيدته، لكنهم في ذات الوقت يسلمون بوجود كائن عظيم هو الذي أنشأ المادة والصورة، لذا فهم جميعا على رأي واحد وليس هناك ما يدعو إلى الخصومة، فأقبل القوم عليه يقبلونه إجلالا وتقديرا.

12 - المواعيد

اتهم كهنة الكواكب "زديج" بسوء رأيه في جيش السماء ، حين قال إن نجوم السماء لا تغرب في البحر، وأقاموا عليه قضيّة وأدانوا فعله وحكموا عليه بأن يحرق، وكان السبب الحقيقي يرجع إلى أن جواهر الأرامل اللاتي يحرقن كانت تؤول اليهم.

حاول "سيتوك" أن ينقذه لكنه أكره على الصمت، عندئذ فكرت الأرملة "ألمونا" أن تتولى مهمة إنقاذه بعد أن كان سببا في إقبالها على الحياة ثانية، فتعطرت ومضت مكتملة الزينة لمقابلة رئيس كهنة النجوم محاولة إغراءه، وعندما نجحت، زيّنت له الإفراج عن "زديج" مقابل أن ترضيه فأخبرها أن الأمر يحتاج إلى موافقة ثلاثة آخرين من الزملاء، فطلبت منه أن يوقع على أن يكون موعد اللقاء مساء اليوم التالي بعد الغروب في بيتها حيث ستكون مهيئة لاستقباله. وبعد أن وقع مضت إلى الزملاء الثلاثة الآخرين فاستوفت توقيعاتهم بنفس الأسلوب، وأطلقت سراح "زديج"

لكنها أخطرت بقيّة القضاة جميعا بما فعله زملاؤهم، فانتظروهم وفق الموعد الذي ضربته لهم بعد الغروب، فكان خزيهم واضحا.

هكذا نجا "زديج" ونظرا لإعجاب "سيتوك" بفتنة "ألمونا" ومهارتها أقبل على الزواج منها سعيدا، فرحا.

لم يقبل "سيتوك" أن يفترق عن عروسه في شهر العسل للذهاب إلى جزيرة "سرنديب" فطلب من صديقه "زديج" أن يقوم بهذه الرحلة نيابة عنه، فقبل مجبرا.

لم يمض على "زديج" وقت طويل في جزيرة "سرنديب" إلا وقد اكتسب شهرة وتفوّقا وحكمة قربته أولا من التجّار ثم من ملك الجزيرة، "نابوسان" الذي سرعان ما وثق فيه وقرّبه منه.

كانت هناك مشكلة عويصة تؤرق الملك "نابوسان" وهي أنّ كل من يعينه في بيت المال سرعان ما يغشّه ويسرقه ويتبعه الموظفون جميعا، فطمأنه "زديج" بأن اختيار خازن لبيت المال أمر يسير، وطلب منه أن يعلن أنه يدعو كلّ من يجد في نفسه الصلاحية للمنصب إلى حضور حفل راقص بالقصر في اليوم الأول من الشهر التالي على أن يكون حضوره بملبس حريري يناسب الحفل، فترشح للمنصب أربعة وستين رجلا، وكان يتحتم على كلّ مشارك كي يصل إلى حجرة الحفل الراقص، أن يسير أولا في ممّر عرض فيه جزء من كنوز الملك دون حراسة، وعندما يصل إلى حجرة الحفل يبدأ في الرقص. وأثناء الرقص وعلى قاعة تلك الحجرة تكشفت حقيقة المتقدمين، بحكم ما أخفوا في طيّات ملابسهم من جواهر ولآلئ

وأحجار ثمينة أثقلت حركتهم، وأثبتت أنهم لصوص. هكذا رسب في الاختبار ثلاثة وستون فردا ونجح واحد فقط كان هو الأخفّ حركة أثناء الرقص. كافأ الملك الناجح الوحيد بالوظيفة بعد أن أثنى على أمانته، وعاقب المخالفين بتعويض لبيت المال، بينما أغدق مالا كثيرا على "زديج" استفاد منه في إرسال مراسيل إلى بابل للتعرّف على أخبار "أستارتيه".

ثم طلب منه الملك أن يعينه في أمر الزواج حتى يختار زوجة أمينة شريفة من بين المائة امرأة اللاتي خصصن لخدمته، زوجة تحبّه لذاته وليس لكونه ملكا. فتخيّر "زديج" ثلاثة وثلاثين رجلا من أهل "سرنديب" كلهم أحدب، وتخيّر ثلاثا وثلاثين خادما من أجمل خدم القصر، وثلاثة وثلاثين كاهنا من الأقوياء الفصحاء، وترك لهم جميعا حريّة الدخول على السلطانات في مقاصيرهن، وترك لكلّ أحدب أربعة آلاف دينار يغري بها. ولم تمض سوى ثلاثة أيام إلا وقد سقط تسع وتسعين من بين نسائه المائة، ولم تبق سوى واحدة صمدت أمام كلّ الإغراءات لأنها تحبّ الملك "نابوسان" لشخصه ولن تستسلم لغيره مهما طال الزمن، فغلب الفرح الملك لأنه عثر أخيرا على ضالته التي أحبته فأحبها بالمثل، لكن عينيها كانتا زرقاوتين، وكان هناك قانون قديم يحظر على الملك أن يحبّ إحدى هؤلاء النسوة اللاتي سماهن اليونانيون ذوات عيون المها. وهكذا انتشرت الشائعات بأنّ هناك خطرًا عظيمًا يحيق بالمملكة نتيجة رغبة الملك. وانتهز شعب "المتوحش" الفرصة فهجموا على الجزيرة، فطلب الملك من رعيته مالا فاكتفى الكهنة برفع أيديهم إلى السماء، وتركوا الدولة نهبا للمتوحشين. وحين لجأ الملك إلى "زديج" نصحه أن يدافع عن أرضه وليدع الأرض التي

أقام عليها الكهنة قصورهم، فلما تحوّل إليهم العدو أسرعوا إليه ينشدون معونته فأجابهم بصلاة أخرى للسماء. عندئذ قدم الكهنة أموالهم وانتهى الأمر بالانتصار ونيل المراد. لكن "زديج" عرف أن الكهنة يترصدون خطاه، ففكر في الرحيل ثانية حتى يعرف بنفسه ما هي أخبار "أستارتيه".

13 - قاطع الطريق

وصل "زديج" إلى الحدود التي تفصل بين بتراء وسوريا، فشاهد قصرا عظيما خرج منه أعراب مسلحون أحاطوا به وهم يصرخون بأنّ كلّ ما معه لهم أما شخصه فلسيّدهم "أربوجاد"، صاحب القصر. فاستل "زديج" سيفه وفعل مثله خادمه وراحا يقتلان كلّ من يقترب منهما، وكان "أربوجاد"، يراقب ما يحدث من قصره ، فأعجب ببراعة "زديج" وشجاعته فنزل إلى رجاله وأبعدهم عنهما، وأمرهم بحسن معاملتهما، ثم استضافه في المساء إلى مائدته، وفهم "زديج" من حديثه أنه ضليع في اللصوصية منذ زمن بعيد بعد أن أراد أن يصنع من نفسه شيئا كبيرا، حتى أصبح أميرا وقاطع طريق. وفهم من حديثه أن الملك "مؤبدار" قد جنّ ثم قتل، وأصبحت بابل موطنا للجرائم وتفشّى فيها الفساد، فلما استفسر منه عن الملكة أفاده بأنّها ربّما تكون بين إماء أمير "آركانيا" إن لم تكن قد قتلت في المعركة، ولم يعرف منه أيّ مزيد لأنّ الخمر كانت قد لعبت برأسه تماما. حزن "زديج" حزنا شديدا لما سمع من أخبار، وفي الصباح أسرع في الرحيل بعد أن سمحوا له بذلك.

14 - صائد السمك

بينما كان "زديج" على الطريق مبتعدا عن قصر "أربوجاد"، رأى قرب جدول صغير صائد سمك يمسك شبكة الصيد بإهمال ناعيا حظّه إلى السماء ؛ لأنّه كان في فترة أعظم بائع جبن أبيض عند أهل بابل، ثم حلّ به الخراب، وخانته زوجته الجميلة، وبقيت له دار صغيرة رآها تنهب وتدمر أمام عينيه، حتى أصبح لاجئا لا يجد سبيلا للرزق إلا مع السمك، لكن حتى السمك لم يظفر بسمكة منه. ثم نهض كمن يريد أن يلقي بنفسه في الماء فأسرع "زديج" إليه، فما أعظم أن ينجذب إنسان شقيّ إلى آخر شقيّ مثله حين تجمع الحاجة بينهما، فيصبحان أشبه بشجرتين تعتمد كلّ واحدة على الأخرى حتى يستطيعا مواجهة العاصفة.

ويدأ الصيّاد يحكي له حكايته بالتفصيل، فقد كان فيما سبق أعظم بائع جبن أبيض عند أهل بابل، وكان يبيع كثيرا منه للملكة وكذلك للحكيم "زديج"، وعندما ذهب ذات يوم لتحصيل الثمن عرف أن كليهما اختفيا، فأسرع إلى قصر "زديج" فوجد جند صاحب الخزانة ومعهم أمر ملكي ينهبون القصر ويدمّرونه أسوأ تدمير، فذهب ومعه امرأته إلى الأمير "أوركان" طالبا منه أن يحميهما فأخذ الأمير زوجته وطرده من القصر شر طردة. وبينما كان يستعد لبيع داره ليقيم قضية يطالب فيها بزوجته وحقوقه، سبقه أمير "آركانيا" مغيرا على بابل ومدمّرا في طريقه كّل شيء، وكانت داره ممّا نهب ثم أحرقت بعد ذلك.

عطف "زديج" على الرجل فمنحه نصف ما كان معه من مال وأوصاه بالذهاب إلى "كادور" المشهور على أن يخبره بأنّه قابل صاحبه في الطريق ولينتظره عنده.

15 - الباسليك

وصل "زديج" إلى مرج جميل فرأى جماعة من النساء يبحثن عن نبات "الباسليك" لمولاهم "أوجول" لوضعه في ماء الورد كما وصفه طبيبه سبيلا للشفاء، وحتى يشجع إماءه على البحث وعد من تعثر عليه بالزواج منها.

ابتعد "زديج" عن تلك النسوة بناء على نصيحتهن فوجد امرأة مسترخية بعيدا وعلى وجهها نقاب متوجهة إلى الجدول تشكو له صعوبة حالها، وتخطّ على الأرض إلى جوارها اسمًا تكرر كتابته المرّة تلو المرّة، فلما قرأه "زديج" وجد أنه اسمه فأيقن أنّها "أستارتيه"، فكانت نعم المصادفة تلك التي جمعت بينهما. وبعد انفعال شديد ومشاعر فيّاضة عنيفة هدأ كلّ منهما وراحا يحكيان ما جرى لهما، فأخبرته أن الوفي "كادور" نفذ من باب سرّي إلى القصر حيث اختطفها وذهب بها إلى معبد "أوروزماد" حيث خبأها أخوه الكاهن في جوف تمثال عظيم، وكان يخدمها ويوفر لها كلّ احتياجاتها، وفي نفس الوقت حاول "كادور" أن يخدع الملك فأخبره أن "زديج" قد سلك طريقه إلى الهند بينما سلكت الملكة طريقا إلى مصر، فأرسل السعاة في أثرها وفق وصفها لأنّهم كانوا لا يعرفونها، وصادفوا عند حدود مصر امرأة لها قامة الملكة فظنوها هي فقبضوا عليها وأحضروها للملك الذي اكتشف خطأهم، لكنه سكت عندما رأى جمال المرأة وأقبل عليها. كان اسمها "ميسوف" وقيل إن

اسمها عند المصريين يعني "الجامحة الحسناء"، واتسع إعجاب الملك بها حتى جعلها ملكة، لكن جموحها لم يتوقف عند حدّ، فحاولت أن تجعل رئيس الكهنة يرقص بين يديها، وجعلت سياسة الدولة بيد أحد خدم القصر، وهكذا انهارت سمعة الملك وعمّ الفساد المملكة. وجاء الملك ذات مرة إلى المعبد حيث كانت تختبئ "أستارتيه"، محاولا أن يحلّ عطف الآلهة على "ميسوف" فصاحت الملكة من داخل التمثال معلنة رفض الآلهة أن تسمع صوت طاغية، بعد أن همّ بقتل امرأة عاقلة ليتزوج من امرأة خرقاء. اندهش الملك وتملكه الذهول، وكان ذلك سببا في أن يفقد صوابه، وخلال أيام انتهى به الأمر إلى الجنون، فكان ذلك إيذانا بخروج "أستارتيه" من مخبئها وتولي رئاسة أحد الأحزاب، بينما أسرع "كادور" إلى ممفيس ليعيد "زديج" إلى بابل، لكن أمير "آركانيا" أقبل بجيشه وهجم على جيش الملك فقتل "مؤبدار" مطعونا، وسقطت "ميسوف" بين أيدي المنتصرين مثلما سقطت الملكة، فأضافهما أمير "آركانيا" إلى حريمه لكن الملكة رفضته رفضا باتا، بل وطلبت من "ميسوف" مساعدتها على الهرب حتى يخلو لها الجوّ مع الأمير دون منافس، وهو ما حدث. لكن الملكة، لسوء حظها، سرعان ما وقعت بين يدي قاطع طريق يدعى "أربوجاد" باعها لبعض التجار لينتهي بها المطاف في قصر السيد "أوجول" الذي كان كل همه منصرفا إلى الطعام، وعندما احتار معه طبيبه أخبره بأنه سيبرأ من مرضه إذا أكل نبات "الباسليك" منقوعا في ماء الورد.

عرف "زديج" أصل علة "أوجول" فاتفق معه على أن يطلق سراح "أستارتيه" مقابل علاجه الشافي، وقد وافق الأمير "أوجول"، فأطلق

سراح الملكة "أستارتيه" التي وعدت عند رحيلها بأن ترسل إلى "زديج" رسولا يخبره بكلّ ما يجري في بابل. ثم بدأ "زديج" معه العلاج الذي استمرّ عدة أيام، كان يدفع فيها كرة إلى الأمير فيردها عليه، وقد شعر الأمير بالإرهاق في الأيام الأولى لكن صحته بدأت تتحسن تدريجيا حتى إذا ما جاء اليوم الثامن ، استرد كامل عافيته وحيويته.

16 - المبارزة

استقبل البابليون الملكة "أستارتيه" استقبالا متعاطفا بعد أن قتل أمير "آركانيا"، وقرر المنتصرون أن تكون الملكة زوجا لأعظم الناس حظا من الشجاعة والحكمة. وحتى يحققوا هدفهم نظموا مسابقة لابد للمنتصر فيها أن يهزم خصومه أولا في الميدان، ثم يحلّ الألغاز ثانيا أمام الكهنة، وهو ما كتبت به الملكة تفصيلا لـ"زديج" الذي حضر وأخذ مكانه بين المتنافسين دون أن يعلن عن شخصه. كان كلّ متنافس يختار لونا وشارة، واستطاع فارسان فقط التغلب على كلّ منافسيهما، هما "زديج" والأمير "أيتوباد". وجرت منافسة بينهما تبادلا فيها كلّ الحيل والمهارات والخبرات، لكن النصر كتب في النهاية لـ"زديج" صاحب الزي الأبيض والشارة البيضاء، ومضيا بعد ذلك كلّ إلى حجرته للحصول على بعض الراحة والنوم، حيث نام "زديج" نوما عميقا ولم ينم "أيتوباد" صاحب الزي الأخضر والشارة الخضراء، إذ استغل فرصة النوم لاستبدال الزي الأخضر بزي "زديج" الأبيض وشارته البيضاء، وارتداه من فوره. ولما نهض "زديج" لم يجد ما يستر به عريه سوى الزي الأخضر فاضطر إلى ارتدائه، فسخر منه كل من شاهده

بعد هزيمة الأمس المذلة، فباع هذا الزي بثمن بخس محملا نفسه ذنب ما حدث بحكم استيقاظه متأخرا، وراح يتمشى على شاطئ الفرات مفكرا بأنّ القدر قد كتب عليه شقاء لا مخرج منه، مستعرضا في ذات الوقت كلّ المآسي التي مرّ بها، حتى توصل إلى أن العلم والأخلاق والشجاعة لم توصله إلا إلى الشقاء. وبلغ به اليأس مبلغه حتى اعترض في لحظة سهو على القدرة الإلهية.

17 - الناسك

قابل "زديج" في طريقه ناسكا انتشرت لحيته على صدره ممسكا في يده كتابا يقرأ منه بشغف شديد، فلما استفسر منه عن الكتاب وضعه بين يديه، لم يستطع "زديج" أن يقرأ منه شيئا لأنه كان مكتوبا بلغة يجهلها، وعرف من الناسك بعد ذلك أنّه كتاب القدر. ونظرا لملامح الناسك وما كان يتحدث به من حديث طيّب حول القضاء والعدل والأخلاق والخير الأعظم وغيرها من المآثر، شعر "زديج" برغبة أعلنها في مرافقته فقبل الشيخ بشرط وحيد هو ألا يسأله عمّا يفعل، فوافق "زديج" ومضيا معا.

وصلا إلى قصر ضخم طلب فيه الناسك الضيافة لنفسه ولمرافقه الشاب، فأدخلهما البواب وأجلسهما إلى طرف مائدة عامرة بأطايب الطعام. وبعد العشاء قدموا إليهما طستا من ذهب مرصّع بالزمرد لغسل أيديهما، ثم مضيا إلى النوم، وفي الصباح أقبل خادم منح كلًا منهما قطعة من ذهب ثم صرفهما. وبينما كان "زديج" يعقب بأن صاحب البيت رجل كريم اكتشف أن جيب الشيخ قد انتفخ انتفاخا شديدا وإذا به يرى بداخله الطست الذهبي المرصّع بالجوهر وقد سرقه الشيخ، ورغم ألمه لم يجرؤ على أيّ قول.

توقف الشيخ في منتصف النهار أمام دار صغيرة يسكنها رجل غني لكنه بخيل، استضافهما ساعات النهار وفي الليل قادهما إلى الاسطبل حيث قدم لهما خادمه طعاما رديئا فأكل الناسك وشرب راضيا ثم وضع في يده الدينارين اللذين سبق أن تلقياهما صباحا، طالبا في ذات الوقت مقابلة صاحب الدار، الذي ما إن رآه الناسك حتى شكره ووضع بين يديه الطست الذهبي اعترافا بالجميل، ثم انصرفا مسرعين. لكن "زديج" سرعان ما سأله عمّا لم يفهم من تصرفاته، فأخبره بأن ذلك الأمير الذي سرق منه الطست الذهبي كان لا يستقبل الناس إلا غرورا ليظهرهم على مقدار ثرائه، وسيصبح منذ اليوم عاقلا.

وعند المساء وصلا إلى دار يعيش فيها فيلسوف اعتزل الناس وعكف على الحكمة والفضيلة، دعاهما إلى مائدة وافرة الطعام، وتسامرا فترة حول القضاء والقدر، ثم قادهما إلى حجرتهما مقدما لهما قدرا من مال بطريقة كريمة لا تؤذي النفس. واستيقظ الناسك مبكرا فأيقظ "زديج" حتى يرحلا إلى بابل، قائلا إنه لابد أن يترك لهذا الرجل شيئا وأمسك مصباحا وأشعل النار في الدار، ولم يتركها حتى دمّرت تدميرا وهو يردد **"ألا ما أسعد هذا الرجل!"**

اضطر "زديج" إلى أن يتتبع الناسك مجبرا حتى وصلا إلى بيت أرملة فاضلة يعيش معها فتى تربطه بها صلة قرابة كان في الرابعة عشرة من عمره جميلا محببا. فلما جاء الغد أمرت قريبها أن يصحب الضيفين إلى جسر أصبح عبوره خطرا بعد أن قطع منذ فترة. فلما بلغا الجسر تقدّم الناسك من الفتى

وشكره على حسن صنيع عمته، ثم جذبه من شعره وألقى به في النهر، فسقط في لجة الماء وسرعان ما غرق بعد أن قاوم لفترة. عندئذ لم يستطع "زديج" مع "الناسك" صبرا فصاح به ناعتا إياه بأنه وحش مجرم، فأخبره الناسك بتفسير ما حدث بأن تحت تلك الدار التي دمرت كان يوجد كنز عظيم سيظفر به صاحبها، وهل تعلم أن ذلك الفتى الذي قتل لو عاش لقتل عمته بعد عام ولقتلك بعد عامين، فسأله "زديج" بعنف عمن أنبأه بذلك. وبينما كان الشيخ يتكلم إذا بلحيته قد زالت وبدت على وجهه ملامح الشباب، وإذا بثوبه قد زال ونبتت في جسمه المهيب أربعة أجنحة، ففهم "زديج" بأنه ملك من السماء قد هبط من أعلى ليعلم إنسانا ضعيفا مثله أن يذعن ويخضع لسلطان القضاء والقدر.

18 - الألغاز

دخل "زديج" بابل في اليوم الذي اجتمع فيه المتنافسون في أحد أبهاء القصر ليمتحنوا بتفسير الألغاز، وليجيبوا عن أسئلة الكاهن الأكبر. ولم يكد "زديج" يظهر في المدينة حتى اجتمع حوله الشعب، ودخل إلى البهو موضحا أنه انتصر في المنافسة لكن رجلا آخر استولى على سلاحه ؛ لذا يرجو أن يؤذن له بالمشاركة في تفسير الألغاز، وأخذت الأصوات فلم يتردد أحد في قبوله، وألقى الكاهن الأكبر سؤاله الأول حول أطول الأشياء في العالم وأقصرها، وأسرع الأشياء وأبطئها، وأشد الأشياء تعرضا للإهمال وأشدها تعرضا للحزن، فاحتار الحاضرون حتى تصدّى "زديج" للإجابة

بأنّه الزمان ؛ لأنه ليس هناك شيء أطول منه فهو مقياس الأبد، وليس هناك أقصر منه لأنه يقصر عن آمال البشر.

وكان السؤال الثاني : ما هو الشيء الذي يقبل ولا يشكر معطيه، وينعم الناس به دون أن يعرفوا كيف ينعمون به، ويعطونه غيرهم دون أن يعرفوا أين هم منه، ويفقده الناس على غير وعي منهم؟ وبعد أن سرت الحيرة بين الحاضرين، أجاب "زديج" بأنها الحياة. وهكذا استمرّ "زديج" يجيب عن سائر الأسئلة حول العدل والخير الأعظم وفن الحكم، وكانت إجاباته هي خير الإجابات.

وبعد أن أعلن انتصاره، أخبرهم أن السيد "ايتوباد" قد أخذ عدته البيضاء أثناء نومه ؛ لذلك فهو يتحداه الآن بسيفه وثوبه، فقبل الآخر التحدي معتقدا أن عدته البيضاء كفيلة بحمايته وتحقيق النصر له، لكن سرعان ما خاب مسعاه وخسر العدة البيضاء في الميدان فاستسلم، ونال "زديج" الملك إلى جوار الملكة "أستاريته" وسط رضا جموع الشعب، وحان دوره في أن يرد الجميل لكل من ساعده في محنته الطويلة الماضية، فكان خلال فترة حكمه التي رضي عنها الشعب، يثني كثيرا على الآلهة.

المؤلفون الوارد ذكرهم

الأمريكي ريتشارد كونيل Richard Connell



هو الكاتب والصحفي الأمريكي (1893-1949)، الذي يعتبر من كتاب القصّة الأكثر شعبية في الولايات المتحدة الأمريكية وله فيها عديد من المجموعات القصصية. كما مارس كتابة الرواية وله أربع روايات منشورة. وتعدّ روايته القصيرة "اللعبة الأكثر خطورة" من أهم أعماله وأكثرها شهرة. وقد حقق نجاحا ملموسا ككاتب ، إضافة إلى نجاحه كصحفي وكاتب سيناريو له كثير من الأعمال السينمائية الناجحة، التي نال عن أحدها شرف الترشيح لجائزة أوسكار عام 1942.

الفرنسي آلبير كامو Albert Camus:



يعتبر الكاتب الفرنسي آلبير كامو (7نوفمبر 1913-4 يناير1960) خير ممثل للأدب الفرنسي. نشأ في الجزائر، وكانت تجاربه التي عاشها هناك في الثلاثينيات شديدة التأثير على فكره وعمله. تعلق منذ عمر مبكر بالأوساط الفكرية ذات النزعات الثورية مع الاهتمام العميق بالفلسفة.

جاء إلى فرنسا في الخامسة والعشرين من عمره. انضم إلى حركة المقاومة أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر وبعد التحرير، ودخل إلى مجال الصحافة وأصبح له عمود في جريدة "كومبات". وكانت اهتماماته الصحفية في ذلك الوقت استجابة لمطالب تلك الفترة. وفي عام 1947 اعتزل الصحافة السياسية. مارس كتابة الرواية ولعل أشهر أعماله على الإطلاق هي رواية "الغريب" (1942). كما كتب القصة القصيرة وله فيها عدد من المجموعات، منها مجموعة "المنفى والملكوت" (1957) التي منها قصة

"الضيف"، التي ترجمها إلى الإنجليزية جاستين أوبراين، واخترناها للترجمة في هذا الكتاب. كما كان له حضور متميز ككاتب مقال، ولعل أشهر مقالاته "أسطورة سيزيف" (1942). كما امتد نشاطه إلى عالم المسرح كاتبا ومخرجا ومعدّا لمسرحيات عن أعمال كتاب آخرين منهم: وليام فوكنر، فيودور ديستويفسكي، دينو بوتزاتي، لوب دي فيجا، وكالدرون، كما يعتبر أحد وراد مسرح العبث. نال جائزة نوبل عام 1957، ومات في حادث سيارة.

الإنجليزي جون جالزوورثي John Galsworthy



هـو الكاتـب الإنجليـزي (14 أغسـطس 1867- 31 ينـاير 1933)، الروائـي وكاتـب المسرح أيضا. من أعماله الروائيـة البـارزة "فورسـايت" Forsyte بأجزائهـا المتسلسلة التي كتبها في الفـترة مـن عـام 1906 حتـى عـام1921، بالإضافة إلى روايتـي "الكوميـديا الحديثة" و"نهاية الفصل". حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1932.

كتب قصة "شجرة سفرجل يابانية" عام 1910.

الأمريكي هـ.بي. لوفكرافت H. P. Lovecraft



هو الكاتب الأميركي "هوارد فيليبس لوفكرافت" (أغسطس 1890-15 مارس 1937). اشتهر بأنه كاتب رعب وفانتازيا وقصص خيال علمي، وخاصة تلك المغرقة في خيال غريب. ويعتبر مع الكاتب الأمريكي إدجار آلان بو" من أكثر كتاب الرعب تأثيرا في القرن العشرين. من أجل كل ذلك نالت قصصه ورواياته نجاحا جماهيريا على مر العصور وتحوّل كثير منها إلى مسرحيات وأفلام سينمائية.

كتب قصة "ماوراء حائط النوم" عام 1919.

الألماني توماس مان Thomas mann:



توماس مان (1875-1955) هو الروائي والناقد، وأحد أهم الشخصيات في أدب القرن العشرين قاطبة. اكتشفت رواياته العلاقة بين الاستثناء الفردي والبيئة المحيطة، سواء أكانت البيئة هي الأسرة، أم العالم عامة.

ولد لأسرة تاجر غني، وهو الأخ الأصغر للروائي وكاتب المسرح هينريش مان. انتقلت الأسرة بعد موت الأب إلى ميونيخ، حيث خدم ضمن موظفي جريدة في ميونيخ، قبل أن يبدأ مستقبله في الكتابة.

كتب عددا من الروايات الهامة، منها "آل بودنبروك" (1901)، "تونيو كروجر" (1903)، "موت في فينيسيا" (1912)، و"الجبل السحري" (1924)، التي تعتبر واحدة من أهم روايات القرن العشرين، "حزن مبكر" (1925)، "ماريو والساحر" (1930)، رباعية "يوسف وإخوته" (1934- 1944)، و"دكتور فاوستوس" (1947).

جدير بالذكر أنه نال جائزة نوبل في الآداب عام 1929، ومات في سويسرا بتاريخ 12 أغسطس 1955.

أمّا قصة "موت" فهي مأخوذة عن جريدة "نيويورك تايمز" بتاريخ 21 سبتمبر 1997، وكانت قد صدرت ضمن مجموعة "ست قصص مبكرة" لتوماس مان، التي ترجمها إلى الإنجليزية بيتر كونستانتين.

النرويجي بجورنستجرن بجورنسونBjörnstjerne Björnson



أنهـــي النرويجـــي بجورنســـــــتجرن بجورنسون (8 ديســمبر 1832- 26 أبريـــــل 1910) تعليمـه الأولي في "كولد". التحق بجامعة "كريستيانا"، حيث بدأت معرفته الشخصية بابسـن. ظهـر كتابـه الأول في عام 1857، وهي روايـة "سـينوف سـولباكن"، التـي اسـتقبلت بحـماس، وظلت واحدة من أكثر أعماله شـيوعا. تـولى في العـام التـالي القيـام بـإدارة مسرح "برجن"، حيث أخرج هنـاك بعضـا مـن مسر-حياته المبكـرة، التـي كانت مواضيعها مستمدة من حكايات النرويج البطولية. كرّس عـددا مـن السنوات التالية لسفراته، وكتابة القصص والمسرحيات، والقصائد، ودخل إلى عالم السياسـة. قضى- الأعـوام 1856 – 1867 مسئولا عـن المسرـح في كريستيانا، تماما مثلما كان محررا في جريدة اعتاد أن يناضل مـن خلالهـا مـن أجل استقلال النرويج السياسي والأدبي. وفي الأعـوام الباقيـة مـن حياتـه،

ظلّ ثورة سياسية عاتية في النرويج. سافر إلى أمريكا في عـام 1880 ؛ حيـث ألقى عددا من المحاضرات في الشمال الغربي. وبدءا من عام 1881، عـاد إلى وطنه الأم، حيث أقام في جنوب النرويج، حتى مات في باريس عام 1910.

على الرغم من أنه يعتبر روائيا وشاعرا، فقد تبوّأ مكانا بين أشهر كتاب الدراما الحديثة ؛ لأنّه كان أول من أوجد الدراما في النرويج، وأول من استخدمها كوسيط في المناقشات الحرّة حول الحقوق الإنسانية والحرية الشخصية، سواء من الناحية الأخلاقية أو الفكرية. وقد اخترنا له قصة "الأب" (1865)، التي تبرز شاعريته وانتماءه للقيم الجميلة!

الروسي آنطون تشيكوف Anton Chekhov



أنطون بافلوفيتش تشيكوف (29 يناير 1860 – 15 يوليو 1904). كان طبيبا، وكاتبا مسرحيا لأعمال رائعة مثل "الخال فانيا"، "الأخوات الثلاث" و"بستان الكرز"، كما يعتبر من أعظم كتاب القصة القصيرة على مرّ التاريخ. كما كتب عددا من الروايات، منها روايته القصيرة "العنبر رقم 6"، التي يلعب فيها الجانب الإنساني دورا حاسما معجونا برهافة فنية نادرة، تماما مثلما برز في كلّ أعماله الأدبية الأخرى.

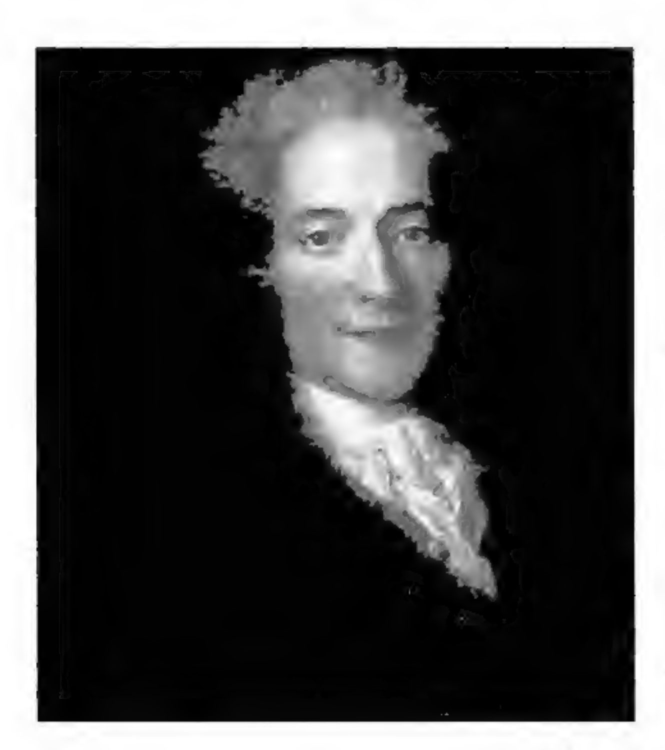
الياباني ريونسكيه أكوتاجاوا Akutagawa Ryūnosuke



يعتبر ريونوسكيه أكوتاجاوا (1892 – 1927) أبا للقصة اليابانية القصيرة الحديثة. تفرغ رينوسكيه تماما للإبداع بدءا من عام 1919، ومنحته القصص التي نشرها شهرة في داخل اليابان وخارجها على حدّ سواء. لكن اعتبارا من عام 1921 بدأت مرحلة تدهور في ظروفه الصحية والنفسية توزّع إبداعه فيها على مرحلتين: الأولى التي استمرت حتي عام 1925 وأبدع فيها قصصا رائعة، حيث نشر قصته المشهورة "في الأيكة" (1922)، التي استعان بها بعد ذلك المخرج الياباني المشهور آكيرو كيروساوا، مع قصة "راشومون"، ليخرج منهما فيلمه العالمي المشهور "راشومون".

جاءت مرحلة أكوتاجاوا الأدبية الأخيرة، خلال عامي (1926، 1927)، موسومة بظروف صحته الذهنية والبدنية المتدهورة، فجاء كثير من أعماله متأثرا تماما بطابع السيرة الشخصية، ومنها قصة "تروس دوّارة" ، التي كتبها عام 1927، وتعتبر قصة رعب، تعتمد على ذهن حسّاس يفقد تماسكه إزاء الواقع الخارجي بالتدريج. قام بترجمتها إلى الإنجليزية سيد كورمان، وسيسيمي كامايك.

الفرنسي فرانسوا ماري فولتير VOLTAIRE



هو الفرنسي فرانسوا ماري فولتير (21 نوفمبر 1694 - 30 مايو 1778)، المعروف باسم فولتير. وهو المؤرخ والفيلسوف أستاذ التنوير، بسبب دعوته للحريات المدنية، بما في ذلك حرية العقيدة، وحرية التعبير، وحرية التجارة والفصل بين الكنيسة والدولة.

كان فولتير كاتبا غزير الإنتاج، لأعمال اتخذت أشكالا أدبية متنوعة، بما في ذلك المسرحيات والشعر والروايات والمقالات، والأعمال التاريخية والعلمية. وكان من المؤيدين البارزين للإصلاح الاجتماعي، كما استخدم أعماله لانتقاد التعصّب، والعقيدة الدينية والمؤسسات الفرنسية في عصره.

تعتبر رواية "زاديج" نموذجا للرواية التي تمتزج فيها الفلسفة مع الخِيال في رؤية تصل إلى القارئ ببساطة ويسر.

صدر من هذه السلسلة

روائع الأدب العالمي في كبسولة (1) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (2) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (3) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (4) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (5) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (6) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (7) عرض وتبسيط مختار السويفي

روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) عرض وتبسيط حمدي عباس

روائع الأدب العالمي في كبسولة (10) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (11) عرض وتبسيط حسين عيد